الغائب المنتظر

هاذم اللذات

أفراح وأحزان

صَيحةُ المقَابِر بأهلِ التكاثر

اللهُمّ اجعَلِ الموتَ خَيرَ غائِبٍ نَنتَظِرهُ

بقلم الدكتور

عبد المجيد البيانوني

كل الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الإنسان في كلّ مكان، الذي كتب الله عليه الحياة والموت، فعرف الحياة، وتجاهل الموت، فلم ينفعه التجاهل عن كأس الموت حين يجرعها . . فهل له أن ينظر فيمن ورد الحياض قبله، فيعدّ لهذا اليوم عدّته ؟!

أقدّم هذه الرسالة معلماً وذكرى.

فطوبى لمن استعدّ للموت، وخشي الفوت، وأسرج مراكب الجِدّ، وأوقد مراجل العزم، وأخذ نفسه بالحزم.. فكانَ من السعداء الفائزين.!

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ التكاثر

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ آل عمران

تصدير

مناجاة لأمير المؤمنين الإمام علي رضي الله عنه

إلهي! كَأَنّي بنفسي، وقد اضطجعت في حُفرتها، وانصرف عنها المشيّعون من عشيرتها، ورحمها المعادي لها في الحياة عند صرعتها، ولم يخف على الناظرين إليها ذلّ فاقتها، وقالت الملائكة: غريب نأى عنه الأقربون، وبعيد جفاه الأهلون، وخذله المؤمّلون، نزل بنا قريباً، فأصبح في اللحد غريباً، وقد كنت في دار الدنيا داعياً، ورحمتك إيّاي في هذا اليوم رَاجياً، فأحسن ضيافتي، وكن أشفقَ عليّ من أهلي وقرابتي..

اللهمّ يا أنيس كلّ غريب آنس في القبر وحشتي، وارحم وحدتي، ويا عالم السرّ والأخفى، ويا كاشف الضرّ والبلوى! كيف نظرك لي من بين ساكني الثرى.؟ وكيف صنيعك لي في دار الوحشة والبلى.؟ قد كنت بي لطيفاً في حياتي، فلا تقطع برّك عنّي بعدَ وفاتي، يا أفضل المنعمين في آلائه، وأكرم المتفضّلين في نَعمائه، كثرت عندي أياديك فعجزت عن إحصائها، وضقت ذرعاً في شكْري للمسائل بجزائها، فلك الحمد على ما أوليت، ولك الشكر على ما أبليت، يا خير من دعاه داعٍ، وأفضل من رجاه راجٍ، يا حنّانُ يا منّانُ! يا ذا

الجلال والإكرام! يا حيّ يا قيّوم! يا من له الخَلقُ والأمر! تباركتَ يا أحسنَ الخالقين! يا رحيمُ يا غفور! يا قديرُ يا كريمُ! ".

وصلّى الله على سيّدنا محمَّد النبيّ الأمّيّ الطاهر الزكيّ، وعلى آله وصَحبه وسلّمَ.

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

الحمد لله حمداً لا يبلى جديده، ولا يُحصى عديدُه، ولا يُبلغُ حدوده، اللهمّ اجعل الموت خيرَ غائب ننتظره، واجعل القبرَ خير بيتٍ نعمرُه، واجعل ما بعده خيراً لنا منه.

اللهمّ ارحم عبداً أنِسَ بذكرك، واغرورقت عيناه دموعاً من خشيتك، فاغفر الزلّةَ، وعُد بحلمك الكريم على جهل من لم يرجُ غيرك.

الحمد لله القائل في كتابه المبين: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ آل عمران.

والقائل سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ آل عمران.

والقائل عزّ وجلّ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ الحشر.

والصلاة والسلام على سيّدنا ونبيّنا محمّد القائل: (.. **أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ المَوْتِ..**) [1]، وعلى آله وأصحابه والتابعين، ومن تَبع سنّته، واهتَدى بهديه إلى يَوم الدين، وبَعد؛

فما أخطر الغفلة عَلى الإنسان! وما أضرّهَا على دينه وعقيدته، وآخرته ومصيره! وأنفاسه في هذه الحياة معدودة، والأمل يخدعه، والأجل يرقبُه، والقبرُ ينتظرُه، وهو يلهو ويلعبُ، ويعصي ربَّه، ويظلم نفسَه، وغير ذلك له أجدى، وبه أولى..

يدفن أقرب الناس إليه، فيحزن على فراقه ساعات أو أيّاماً، ثمّ يعود إلى عبثه ولهوه، ولا يحزن على نفسه أنّ هذا مصيره.. وأنّه عمّا قَريب سيُشيّع إلى مثواه، ويدخلُ القبر ليس معه سوى ما قدّم من عمل.!

نُح على نفسِك يا مِسكينُ إن كُنتَ تنوحُ لتَمُوتَنّ وإن عُمّرتَ ما عُمّر نُوحُ

ورُبّما دخل المقبرة ساهياً لاهياً، ذكر الدنيا لا يفارِق لسانه، وهمّها يُسكر وجدانه، ما كان له أن يدخُلَها لولا حقّ قريبه الذي يُشيّعه..

فإلى متى.؟! أيّ غفلة عن الموت أعظم من هذه الغفلة.؟!

وكأنّي بأبي العلاء المعرّيّ يَهمِسُ في أذن أمثال هَؤلاء:

---

(١) جزء من حديث طويل سيأتي بتمامه مع تخريجه.

صَاحِ هذي قبورنا تملأ الرحبَ فأين القبورُ مِن عَهدِ عَادِ ؟
خفّفِ الوطءَ مَا أظنُّ أديـ ـمَ الأرضِ إلاّ مِن هذهِ الأجسادِ
رُبّ لحدٍ قد صَار لحداً مِراراً ضاحكٍ مِن تزاحُمِ الأضدادِ

وربّما بكى على قريبه الذي يشيّعه، لا يبكى في الحقيقة إلاّ أسفاً عَلى ضياع حظّ عاجل، أو شباب آفل، ولم يتفكّر في الموت وما بعد الموت، ولأمثال هؤلاء يقول الشاعر:

على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له فيها نصيبٌ ولا سهمُ

لقد كتب لنا الصالحون من السلف مواعظ الموت بأحوالهم وأعمالهم، وصدقهم وإخلاصهم، واجتهادهم وجدّهم، ونصحهم وإشفاقهم.. فهل من معتبر.؟!

ولا نريد أن تكون هذه المواعظ دمعة جزعٍ لا ينفع، أو دمعة عينٍ باردة، سرعان ما تجفّ، ويجفّ معها كلّ خير، وتعود النفس إلى غفلتها ولهوها، وقسوتها ومعاصيها.. إنّما نريدها عملاً مثمراً، وتحوّلاً بنّاءً، يجعل المؤمن يتّخذ إلى ربّه سبيلاً، ويريد الآخرة، ويسعى لها سعيها، ولا يبرح ذكر الموت فكره، لأنّه يوقن أنّه قد يأتيه في أيّ ساعةٍ من ليل أو نهار..

وبعد؛ فهذه موعظة عاجلة، ورسائل موجزة بيّنة عن الحقّ الذي يكره ذكره أكثر الناس، ولابدّ لهم من ورود حياضه، وتجرّع

مرارة كأسه، ولو نجا منه أحد لكان أحقّ الناس بذلك أنبياء الله ورسله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ الأنبياء. وقد جمعت فيها بعض ما وصل إليّ من أخبار وفاة بعض الناس، ممّا فيه عظة للأحياء وعبرة، وذكرى لنفسي ولمن ضربت على قلوبهم سنة الغفلة.

والله تعالى أسأل، وبأسمائه الحسنى وصفاته العلى أتوسّل أن يجعل الموت خيرَ غائب ننتظره، وما بعده خيراً لنا منه، ويقبل بقلوبنا إليه، ويجعل اعتمادنا عليه، ويجعَل خَيرَ عُمُرنا آخِرَه، وخَيرَ عَمَلِنا خَواتمَه، وأن يحبّبَ إلينا لقاءه، ويجعلَ خَيرَ أيّامِنا يَومَ نلقَاه وهو رَاضٍ عَنّا، وأن ينفع بهذه الرسالة عباده، ويجعلها من خير الأجر والذخر.

وصلّى الله وسلّم وباركَ على عبده ونبيّه سيّدنا محمّد، وعلى آله وأصحابه والتابعين، والحمد لله ربّ العالمين.

جدّة في ١٤٢٦/٢/٢٧ هـ

وكتبه د. عبد المجيد اليانوني

واحزناه عليك أيها الإنسان. !

واحزناه عليك أيّها الإنسان المغرور بالأماني.! الكادح في متاهات الدنيا، تطلب المزيد من كلّ شيء، ولا تعلم أنّك كادح إلى ربّك كدحاً فملاقيه.. ماذا أعددتَ لنفسك.؟ يوم تسقط على الأرض، فما تستطيع القيام، فتحمل بين الأيدي، قد فارقت الحياة الدنيا بغتة، وجاءك الموعد المحتوم.. فإذا جاء أجلهم فلا يستقدمون ساعةً، ولا يستأخرون..

واحزناه عليك! والأمل الكاذب! والأماني الخلّب! تتجدّد في نفسك مع كلّ صباح ومساء، وتمتدّ أمام ناظريك، وتتكاثف سحبها على عقلك وناظريك، فلا ترى سواها، ولا تفكّر إلاّ فيها، ولا تنطق بغير الحديث عنها، ولا تصغي سمعك إلاّ لمن يدغدغ مشاعرك نحوها..

واحزناه عليك! وهي كلّما لهثت وراءها تباعدت منك، وكلّما اقتربت منها نأت عنك، وكلّما ظننت أنّها أصبحت بين يديك، قبضت عليها بكلتا يديك، فإذا أنت تقبض على السراب..

ألم تر قوافل الموت تمضي، في كلّ بقعة من بقاع الأرض.. ألم تسمع كعب بن زهير رضي الله عنه يهمس في أذنك مذكّراً:

كلّ ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمولُ

تمضي الجنائز إثر الجنائز.... تحمل الوليد واليافع، والشيخ والعجوز، والشيب والشباب، والأغنياء والفقراء، والعامّة والأمراء، والملوك والرءساء وكلّ ذي روح، تحمل من لم يفكّر بالموت لحظة، ومن كان هاجس الموت لا يبرح تفكيره وذكره.. تحمل الصبيّ الصغير، الذي لم يكد يسمع عن الموت شيئاً.. ومن سقى الناس كئوس الموت وحمامه، وكأنّه كان يظنّ نفسه بمنجاة عن هوله وحياضه..

ألم تسمع عن الموت يقتحم القصور المشيدة، والحصون المنيعة.؟!

وقد نأى أهلها بأنفسهم عن كلّ أسبابه، وأترعت أنفسهم من موائد الشهوات، وسكروا حتّى ثملوا بكئوس الأهواء والترّهات..

فهل نفعهم ذلك وأنجاهم.؟ وهل أخّر عنهم كأس الموت وحاباهم.؟! إنّه يأتي بقدر الله المعلوم المحتوم.. فلا نجاة لهم منه ولا مفرّ..

يقول الشاعر الجاهليّ:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطئ يعمّر فيهرمِ.

وإذا كان هذا الشاعر الجاهليّ يرى المنايا خبط عشواء، فإنّ المؤمن يراها أقداراً إلهيّة حكيمة، لا يدركها عقل الإنسان القاصر، وقد كان من رحمة الله بعباده أن أنذرهم أنّ الموت يأتي بغتة، وأنّ الأجل إذا جاء فلا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون..

واعلم أنّ الناس في ذكر الموت على ثلاثة أقسام:

١ - إمّا منهمك بالدنيا، ولا تخطر له الآخرة على بال.

٢ - وإمّا تائب مبتدئ، يجاهد نفسه على التقوى والعمل للآخرة.

٣ - وإمّا عارف بالله من أهل التّقوى زهدت نفسه في الدنيا، وتاقت إلى الآخرة.

فأمّا المنهمك بالدنيا، فلا يذكر الموت بحال، وإن ذكره فإنّه يذكره آسفاً على الدنيا، حزيناً على فراقها. وهذا على خطر عظيم، إذ لا يزيده ذكر الموت من الله تعالى إلاّ بعداً.

وأمّا التائب المبتدئ، فإنّه يكثر من ذكر الموت، لينبعث من قلبه الخوف والخشية، فيفي بتمام التوبة، وربما يكره الموت خوفاً من أن يختطفه قبل تمام التوبة، وقبل إصلاح الزاد إلى الآخرة، وهو معذور بكراهية الموت لهذا السبب.

وعلامته أن يكون دائم الاستعداد له، لا يشغله عنه من الدنيا شاغل.

وأمّا العارف بالله، فإنه يذكر الموت دائماً، لأنّه موعد لقاء الله تبارك تعالى، وهو يحبّه، والمحبّ ينتظر لقاء الحبيب.

وهذا على الغالب يستبطئ مجيء الموت، ويحبّ مجيئه ليتخلّص من سجن الدنيا، وينتقل إلى جوار ربّه الكريم.

فما الجدير بالعاقل. ؟ ما أجدر الإنسان العاقل، الذي يطوي حياته صحيفةً صحيفةً، ويقتلع عمره بيده من التقويم السنوي ورقةً ورقةً، ويرى بعينه مراحل العمر تمضي مرحلةً مرحلةً، وينتقل من طفولة إلى شباب، ثم إلى كهولة، فشيخوخة وهرم، هرمٍ ليس بعده إلاّ الموت..

أقول: ما أجدر هذا الإنسان إذا كان عاقلاً، أن يفكّر فيما بعد الموت، ويستعدّ بالإيمان والعمل الصالح، لحياة الخلود في النعيم، ويعمل للنجاة من الخلود في عذاب الجحيم!!

مقارنة: لو قارنا بين رجلين: أحدهما مؤمن بالله واليوم الآخر مستعد له، والآخر جاحد بالله، كافر باليوم الآخر، لرأينا الفرق بينهما شاسعاً.

فالمؤمن بالله واليوم الآخر كلما ذكر الموت والآخرة، تحرّك قلبه بالرجاء، آملاً أن يكون في الآخرة من السعداء، ومن أهل النعيم الخالد فيها.. فهو سعيد في نفسه، مطمئن في حياته، مهما قاسى من الشدائد والصعاب، والآلام والأسقام، ومهما لاقى في شيخوخته وهرمه، من ضعف ووهن، فهو يودع هذه الحياة راضياً، هانئ النفس، فرحاً بلقاء الله، منتظراً ثواب الله..

فأيّ سعادة أعظم من هذه السعادة ؟!

وأمّا الملحد بالله، الكافر باليوم الآخر، فإنّه يتقلّب في شدائد الحياة وصعوباتها، وآلامها وأسقامها كما يتقلب الحيوان الأعجم، لا يعرف سبباً لوجوده، ولا يرجو ثواباً لعمله، ويدركه ضعف الشيخوخة، ووهن الهرم، فلا يجد لذة في مأكل ولا مشرب، ولا في متعة من متع الحياة، ثم هو إذا عاين الموت، فارق هذه الحياة كئيباً حزيناً، لا يرى أنّه صائر بعد موته إلاّ إلى جيفة كما يصير الحمار.. فأيّ شقاء أشدّ من هذا الشقاء ؟! (١).

(١) انظر الإيمان باليوم الآخر للشيخ أحمد عزّ الدين البيانوني ص/٢٩/ وما بعد باختصار وتصرّف.

التصوّر القرآنيّ عن الموت والحياة

الموت في تصوّر المؤمن ليس نهاية وجود الإنسان، وإنّما هو رحلة من الدنيا الفانية إلى الآخرة الباقية، ولقد عرضه القرآن الكريم على المؤمنين عرضاً مُحبّباً، بمقتَضى إيمانهم بالآخرة، ويقينهم بأخبارها، مع ما يظهر من شدّته ومرارته، ونفرة الإنسان عنه بطبعه، ممّا جعلهُم يَأنسون به، ويرتاحون إليه: فهو نهاية الحياة القصيرة الفانية، حياة الكدر والابتلاءات، والغصص والآلام، وبداية الحياة السعيدة المطمئنّة، الخالدة في النعيم المقيم، والعزّ والتكريم في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فيما لا عين رأت، ولا أذُنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر..

وهو قدر محتوم، لا يتقدّم ولا يتأخّر، ولا منجى منه ولا مفرّ، فإذا كان أمره كذلك فحريّ بالمؤمن أن يكون مستعدّاً للقائه في كلّ وقت، وأن يعلم أنّ ما بعده من مَغفرة الله وقربه، وجنّته ورضوانه خير له من هذه الدنيَا وحظوظها الفانية، ممّا يوجب على المؤمن أن لا يتقبّل الموت عند نزوله فحسب، بل يطلب الموت في مظانّه، التي هي مواطن يحبّها الله تعالى، ويرضى عن العبد بهَا، كما عبّر عن ذلك عمير بن الحمام الأنصاريّ ﷺ عندما قال:

ركضاً إلى الله بغير زادِ إلاّ التقى وعمل المعادِ

والصبر في الله على الجهادِ وكلّ زادٍ عرضة النفادِ
إلاّ التقى والبرّ والرشادِ

ولقد تغلغلت هذه الحقائق في نفوس الصحب الكرام ﷺ، ومن تبعهم بإحسان، فأحبّوا الموت في سبيل الله تعالى، كما أحبّ عدوّهم الحياة، وطلبوه في مظانّه، وعرف عنهم ذلك عدوّهم فهابهم، وخشي لقاءهم، فوهبت لهم الحياة الكريمة، وكانوا سادة الأمم، وقادتها إلى كلّ خير.. في الوقت الذي نرى القرآن الكريم يعيب على اليهود، وهم يدّعون أنّهم أبناء الله وأحبّاؤه، وأنّ الآخرة خالصة لهم من دون الناس.. يعيب عليهم القرآن الكريم شدّة تعلّقهم بالحياة الدنيا، وحرصهم على أيّ نوعٍ منها، ولو كانت ذليلةً مهينة، شأن المادّيّين الذين لا يعرفون الآخرة، ولا يؤمنون بها: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ البقرة.

هذا ونلخّص أهمّ الحقائق القرآنيّة عن الموت في النقاط التالية:

١ - الموت نقلة من هذه الدار، ومرحلة من مراحل الحياة، وليْس نهَايةً لها.

٢ - الموت والحياة بقدر الله المحتّم، الذي لا يتقدّم ولا يتأخّر، وهو من الغيب الذي لا يعلمه إلاّ الله تعالى.

٣ - ما عندَ الله تعالى خَير للمؤمن التقيّ وأبقى من الدنيا وما فيها.

٤ - الدنيا دَار ابتلاء ومحن، وهيَ مَزرعة الآخرة، والآخرة دار الحساب والجزاء.

٥ - المؤمن يضَحّي برغباته وبحياته في سبيل الفوز في الآخرة بمرضاة ربّه.

٦ - لا أحدَ يعلم بم يختم له، ولكنّ البداية الحسنة، والاستقامة على الخير تبشّر المؤمن بالخاتمة الطيّبة بإذن الله.

٧ - الذينَ لا يؤمنون بالآخرة لا همّ لهم إلاّ الدنيا وشهواتها.

٨ - ويحرصونَ على الحياة ولو كانت في مستنقع الذلّ والهوان.

٩ - المؤمن التقيّ يحيا حياة طيّبة، ويموت ميتة طيّبة بإذن الله تعالى.

١٠ - الإيمان بالحساب والجزاء في الآخرة خير ما يضبط سلوك الإنسان، ويفرض عليه الالتزام بحدوده.

* من مواعظ الصحف الأولى:

عن أَبِي ذرٍّ ﷺ قال: قلت: يا رسول الله! ما كانت صحف إبراهيم عليه السلام ؟

قال: (كانت أمثالاً كلّها: أيّها الملك المسلّط المبتلى المغرور! إنّي لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكنّي بعثتك لتردّ عنّي دعوة المظلوم، فإنّي لا أردّها، ولو كانت من كافر.

وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن تكون له ساعات: ساعة يناجي ربّه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكّر فيها في صنع الله، وساعة يخلو فيها لحاجته من المأكل والمشرب.

وعلى العاقل ألاّ يكون ظاعناً إلاّ لثلاث: تزوّد لمعاد، أو مرمّة لمعاش، أو لذّة في غير محرّم.

وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه، ومن حسب كلامه من عمله قلّ كلامه إلاّ فيما يعنيه).

قلت: يا رسول الله! فما كانت صحف موسى عليه السلام ؟

قال: (كانت عبراً كلّها: عجبت لمن أيقن بالموت، ثمّ هو يفرح! عجبت لمن أيقن بالنار، ثمّ هو يضحك! عجبت لمن أيقن بالقدر ثمّ هو ينصب! عجبت لمن رأى الدنيا، وتقلّبها بأهلها ثمّ اطمأنّ إليها! عجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثمّ هو لا يعمل.! قلت: يا رسول الله أوصني! قال: أوصيك بتقوى الله، فإنّها رأس الأمر كلّه.

قلت: يا رسول الله زدني! قال: عليك بتلاوة القرآن، فإنّه نور لك في الأرض وذكر لك في السماء. قلت: يا رسول الله زدني! قال: إيّاك وكثرة الضحك، فإنّه يميت القلب، ويَذهب بنور الوجه. قلت: يا رسول الله زدني! قال: عليك بالصمت إلاّ من خير، فإنّه مطردة للشيطان عنك، وعون لك على أمر دينك. قلت: يا رسول الله زدني! قال: عليك بالجهاد، فإنّه رهبانيّة أمّتي. قلت: يا رسول الله زدني! قال: أحبّ المساكين وجالسهم. قلت: يا رسول الله زدني! قال: انظر إلى من هو دونك، ولا تنظر إلى من هو فوقك، فإنّه أجدر ألاّ تزدري نعمة الله عليك. قلت: يا رسول الله زدني! قال: قل الحقّ ولو كان مرّاً. قلت: يا رسول الله زدني! قال: ليردّك عن الناس ما تعلمه من نفسك، ولا تجد عليهم فيما تأتي، وكفى بك عيباً أن تعرف من الناس ما تجهله من نفسك، وتجد عليهم فيما تأتي. ثمّ ضرب بيده على صدري، فقال: (يا أبا ذرّ لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكفّ، ولا حسب كحسن الخلق) [1].

* موعظة النبيّ ﷺ بالموت

دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُصَلاَّهُ فَرَأَى نَاسًا كَأَنَّهُمْ يَكْتَشِرُونَ - أي: يضحكون وتظهر أسنانهم من الضحك - قَالَ: أَمَا إِنَّكُمْ لَوْ أَكْثَرْتُمْ ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ - يعني الموت - لَشَغَلَكُمْ عَمَّا أَرَى،

(١) . رواه المنذريّ في الترغيب والترهيب، وقال: رواه ابن حبّان في صحيحه، واللفظ له والحاكم.

فَأَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ المَوْتِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْتِ عَلَى الْقَبْرِ يَوْمٌ إِلاّ تَكَلَّمَ فِيهِ، فَيَقُولُ: أَنَا بَيْتُ الْغُرْبَةِ، وَأَنَا بَيْتُ الْوَحْدَةِ، وَأَنَا بَيْتُ التُّرَابِ، وَأَنَا بَيْتُ الدُّودِ، فَإِذَا دُفِنَ الْعَبْدُ المؤْمِنُ، قَالَ لَهُ الْقَبْرُ: مَرْحَباً وَأَهْلاً، أَمَا إِنْ كُنْتَ لأَحَبَّ مَنْ يَمْشِي عَلَى ظَهْرِي إِلَيَّ، فَإِذْ وُلِّيتُكَ الْيَوْمَ، وَصِرْتَ إِلَيَّ، فَسَتَرَى صَنِيعِيَ بِكَ، قَالَ: فَيَتَّسِعُ لَهُ مَدَّ بَصَرِهِ، وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الجَنَّةِ، وَإِذَا دُفِنَ الْعَبْدُ الْفَاجِرُ أَوِ الْكَافِرُ، قَالَ لَهُ الْقَبْرُ: لا مَرْحَباً وَلا أَهْلاً، أَمَا إِنْ كُنْتَ لأَبْغَضَ مَنْ يَمْشِي عَلَى ظَهْرِي إِلَيَّ، فَإِذْ وُلِّيتُكَ الْيَوْمَ، وَصِرْتَ إِلَيَّ، فَسَتَرَى صَنِيعِيَ بِكَ، قَالَ: فَيَلْتَئِمُ عَلَيْهِ حَتَّى يَلْتَقِيَ عَلَيْهِ، وَتَخْتَلِفَ أَضْلاعُهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَصَابِعِهِ - أي أشار بها - فَأَدْخَلَ بَعْضَهَا فِي جَوْفِ بَعْضٍ، قَالَ: وَيُقَيِّضُ اللهُ لَهُ سَبْعِينَ تِنِّينًا - أي: ثعباناً - لَوْ أَنْ وَاحِدًا مِنْهَا نَفَخَ فِي الأَرْضِ مَا أَنْبَتَتْ شَيْئاً مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا، فَيَنْهَشْنَهُ، وَيَخْدِشْنَهُ حَتَّى يُفْضَى بِهِ إِلَى الحِسَابِ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (إِنَّمَا الْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ)[1].

(١) رواه الترمذي في كتاب ٢٣٨٤ ثم قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

* من مواعظ السلف بالموت

وجاء في وصيّة أبي بكر الصدّيق قبل وفاته لعمر رضي الله عنهما:

"... أما إن حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت، وأنت لا بد لاقيه، وإن أنت ضيعت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولا تعجزه.. " (١).

وعن ربيع بن خيثم رحمه الله قال: " ما غائب ينتظره المؤمن خير من الموت " (٢).

ويقول أويس بن عامر القرنيّ ﷺ: " يا أهل الكوفة! توسّدوا الموت إذا نمتم، واجعلوه نصب أعينكم إذا قمتم ".

كان الربيع بن خثيم ﷺ يقول: " أكثروا ذكر هذا الموت، الذي لم تذوقوا قبله مثله "، وحفر لنفسه قبراً، وأخذ ينزل فيه كلّ يومٍ ويتمدّد، ثمّ يقوم ويعظ الناس بما يرقّق قلوبهم.

ويقول سعيد بن جبير ﷺ: " لو فارق ذكر الموت قلبي لخشيت أن يفسد عليّ قلبي ".

---

(١) . سنن سعيد بن منصور ١٣٢/٥ . ١٣٤/ تفسير سورة الأعراف وهو في مصنف ابن أبي ٧ /٩٢/.

(٢) . مصنف ابن أبي شيبة ١٤٥/٧/ كلام ربيع بن خيثم /٣٤٨٤٠/.

ووعظ الناس عمر بن ذرّ ﷺ فقال: " أمّا الموت فقد شهر لكم، فأنتم تنظرون إليه في كلّ يومٍ وليلةٍ، من بين منقول عزيز على أهله، كريم في عشيرته، مطاع في قومه، إلى حفرة يابسة، وأحجارٍ صمّ، ليس يقدر له الأهلون على وساد إلاّ خالطه فيه الهوامّ، فوساده يومئذٍ عمله، ومن بين مغموم غريب، قد كثر في الدنيا همّه، وطال فيها سعيه، وتعب فيها بدنه، جاءه الموت قبل أن ينال بغيته، فأخذه بغتة، ومن بين صبيّ مرضع، ومريضٍ موجع، ورهنٍ بالشرّ مولع، وكلّهم بسهم الموت يقرع ".

وقال عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ﷺ: " كم من مستقبل يوماً لا يستكمله، ومنتظرٍ غداً لا يبلغه، لو تنظرون إلى الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره ".

وقال أحد تلامذة سفيان الثوريّ ﷺ: " ما جلست مع سفيان مجلساً إلاّ ذكر الموت، وما رأيت أحداً أكثر ذكراً للموت منه ".

ووعظ الناس عمر بن عبد العزيز ﷺ فقال: " قبور خرّقت الأكفان، ومزّقت الأبدان، ومصّت الدم، وأكلت اللحم.. ترى ما صنعت بهم الديدان.؟! محت الألوان، وعفّرت الوجوه، وكسرت القفار، وأبانت الأعضاء، ومزّقت الأشلاء..

ترى أليس الليل والنهار عليهم سواء.؟! أليسوا في مدلهمّة ظلماء.؟!

كم من ناعم وناعمة أصبحوا وجوههم بالية، وأجسادهم عن أعناقهم نائية، قد سالت الحدق على الوجنات، وامتلأت الأفواه دماً وصديداً، ثمّ لم يلبثوا والله إلاّ يسيراً، حتّى عادت العظام رميماً.

قد فارقوا الحدائق، فصاروا بعد السعة إلى المضائق.

يا ساكن القبر غداً! ما الذي غرّك من الدنيا.؟! أين دارك الفيحاء.؟! وأين رقاق ثيابك.؟! ليت شعري كيف ستصبر على خشونة الثرى.؟! وبأيّ خديّك يبدأ البلى.؟! ".

وعلا صوت الحسن البصريّ رحمه الله، وهو يعظ الناس ويقول " المبادرة المبادرة! فإنّما هي الأنفاس، لو حبست لانقطعت عنكم أعمالكم، إنّكم أصبحتم في أجل منقوص، والعمل محفوظ، والموت والله في رقابكم، والنار بين أيديكم، فتوقّعوا قضاء الله عزّ وجلّ في كلّ يوم وليلة.

لقد فضح الموت الدنيا، فلم يترك لذي لبّ فرحاً.

وإنّ أمراً هذا الموت أخره، لحقيق أن يزهد في أوّله، وإنّ أمراً هذا الموت أوّله، لحقيق أن يخاف أخره ".

ويقول أيضاً: " إنّك والله لأن تصحب أقواماً يخوّفونك حتّى تدرك أمناً، خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمّنونك حتّى تلحقك المخاوف ".

قال الحسن بن عبد العزيز الجرويّ شيخ الإمام البخاريّ: " من لم يردعه القرآن والموت، فلو تناطحت الجبال بين يديه لم يرتدع ".

قال بعض الشعراء:

يا ربّ عبدك قد أتا ك وقد أساء وقد هفا
يكفيه منك حياؤه من سوء ما قد أسلفا
حمل الذنوب على الذنو بِ الموبقات وأسرفا
وقد استجار بذيل عَف وك من عقابك ملحفا
يا ربّ فاعفُ وعافه فلأنت أولى من عفا

وقال آخر:

أنا في القبر رهين قد تخلّى الأهل عنّي
بذنوبي أسلموني خبت إن لم تعف عنّي
فارحم اليوم مشيبي وارحم اللهمّ سنّي
وارحم اللهمّ ضعفي لا يخيب اليوم ظنّي

وأوصى أبو العتاهية أن يكتب على قبره:

أذنَ حيّ تسمّعي اسمعي ثمّ عِي وَعِي
أنا رهن بمضجعي فاحذري مثل مصرعي
عشت تسعين حجّةً ثمّ وافيت مضجعي
ليس شيء سوى التقى فخذي منه أو دعي

وقال أيضاً:

أنلهو وأيّامنا تذهبُ ونلعبُ والموت لا يلعبُ
عجبت لذي لعبٍ قد لها عجبت وما لي لا أعجبُ
أيلهو ويلعبُ مَن نفسُه تموت ومنزله يخربُ
نرى كلّ ما ساءنا دائماً على كلّ ما سرّنا يغلبُ
نرى الليل يطلبنا والنهار ولم ندرِ أيّهما أطلبُ
أحاط الجديدان جميعاً بنا فليس لنا عنهما مهربُ
وكلّ له مدّة تنقضي وكلّ له أثر يُكتبُ

ويقول الشاعر:

إن تبق تفجع بالأحبّة كلّهم وفناءُ نفسك لا أبا لك أفجعُ

وأقول:

فاربأ بنفسك أن تكون كرملة تاهت بها الأمواج في الشطآنِ
عش ما بدا لك سالماً في ظلّ شاهقة القصورِ
يُسعى عليك بما اشتهيـ ـت في الرواح وفي البكورِ
فإذا النفوس تقعقعت في ضيق حشرجة الصدورِ
فهناك تعْلم موقناً ما كنتَ إلاّ في غرورِ

وقال محمّد بن بشير:

ويلٌ لمن لم يرحم الله ومن تكون النار مثواه
والويل لي من كلّ يوم أتى يُذكّرني الموت وأنساه
كأنّه قد قيل في مجلسٍ قدكنت آتيه وأغشاه:

صار البشيريّ إلى ربّه يرحمنا الله وإيّاه

سُمع بعضُ المحتضرين عند احتضاره يلطم وجهه، ويقول: ﴿ . . يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ الزمر.

وقال آخر عند احتضاره: " سخرت بي الدنيا حتّى ذهبت أيّامي ".

وقال آخر عند موته: " لا تغرّنكم الحياة الدنيا كما غَرّتني ".

وقال ابن السمّاك: " احذر السكرة والحسرة، أن يفجأك الموت وأنت على الغِرّة فلا يصف واصفٌ، قدر ما تلقى، ولا قدر ما ترى ".

فانظر لنفسك يا أخي! واغتنم وقتك، فإنّ من جدّ وجد، وليس من سهر كمن رقد، والثواء قليل، والرحيل قريب، والطريق مخوف، والاغترار غالب، والخطر عظيم، والناقد بصير " [1].

[1] الرقائق للشيخ محمّد أحمد الراشد ص/١٢٥/، نقلاً عن اقتضاء العلم العمل للخطيب البغداديّ ص/١٦/.

* كيف يستقبل الصالحون الموت. ؟

اللحظات الأخيرة من الحياة مرآة، تتجلّى فيها ما كان يغلب على الإنسان في حال صحّته وشبابه.. فمن غلب عليه الحبّ لله ورسوله ﷺ عبّر عن حبّه، ومن غلب عليه التعظيم لله والإجلال غلبت عليه الخشية والمهابة، إلاّ أن يستحضر حسن الظنّ، وعظيم الرجاء بالله، ومن غلب عليه الشعور بالذنب والتقصير غلب عليه الخوف من سوء الخاتمة والمآل، وربّما عبّر عن خوفه بما أوصى به بعضهم أن تغلّ يديه ورجليه قبل دفنه.. لعلّ الله عزّ وجلّ أن يرحمه، وأوصى آخر أن يلقى على المزابل.. ومثل ذلك من غلبة الأحوال التي لا تقرّ، ولا يعمل بها، ولكنّها تعبّر عمّا كان عليه الإنسان في حياته، من معانٍ إيمانيّة وحقائق، وأحوال قلبيّة ومراتب.. وكلّ ذلك خير ممّن عاش منكوس القلب، مسلوب اللبّ بشهوات الدنيا، وأهواء النفس، لم يفكّر يوماً بهَذا المصير، ولم يستعدّ له.. فاختر لنفسك أيّ ميتةٍ تموت..

وعندما نطالع سير السلف الصالح، ونرى كيف كانوا يستقبلون الموت، نجد أنّهم كانوا يستقبلون الموت بنفوسٍ هادئة، وقلوبٍ مطمئنّة، لأنّهم امتلأت قلوبهم بحبّ الله ورسوله ﷺ، فتأتيهم

الملائكة بالبشرى الله، وأمّا الذين أترعت قلوبهم بحبّ الدنيا وشهواتها، والتعلّق بها، ونسوا الآخرة، وغفلوا عنها، فهم يجدون لفراق الدنيا مرارة ما بعدها من مرارة، وتتقطّع قلوبهم حسرة على فراقها.. وعندما يعاينون عالم البرزخ وما فيه من الأهوال تشتدّ نفرتهم من الموت، ويندمون على ما كانوا عليه من العمل، ولا مفرّ، ولات ساعة مندم..

" وإنّ وفاة المحبّين والعارفين، وعباد الله المقرّبين، من أروع التي تبرز فيها المعاني الروحيّة السامية، أمثال: " الحبّ والوفاء، والشوق إلى اللقاء، والثقة بوعد الله، والحنين إلى رضاه "، حيّة شاخصة، جميلة رائعة، فهي ساعة تتجلّى فيها كلّ هذه المعاني والحقائق، التي جاهدوا لأجلها، وتفانوا في سبيلها، وعاشوا في جوّها، وحنّوا إليها، كما يحنّ الطائر إلى وكره، حتّى إذا وافتهم هذه الساعة كانوا أشدّ شوقاً وإيماناً، ورقّة وحناناً، وطرباً واهتزازاً، وطرأت عليهم أحوال وآثار، وأقبلت بوادر خير، وطلائع سعادة، يغبطهم عليها كثير من الأحياء، وأصحاب النعيم والسعادة، ويتمنّون الوصول إلى هذه المكانة السامية، والحصول على علامات القبول في هذه الساعة الدقيقة الفاصلة، التي هي محصول الحياة، ولبّ اللباب ".

" ويورث ذلك في كثير ممّن شرح الله صدرهم، ورزقهم الإنصاف من غير المسلمين، وكثير من الشاكّين المنكرين إيماناً بأنّ

هناك حقائق غيبيّة، وعالماً وراء الحسّ والمادّة أجمل وأوسع، يهيم به الهائمون، ويحنّ إليه المؤمنون المصدّقون، وأنّ الأمر رأي عين لكثير من أصحاب العقيدة والاتّباع، وأنّ لتعاليم الإسلام وحياة الرسول ﷺ تأثيراً في نفوس المسلمين لا يوجد له نظير، في العمق والقوّة، والتغلغل في الأحشاء، عند أيّ من الفلسفات الاقتصاديّة، والتعاليم المادّيّة [١].

- لما احتضر الحسن بن علي رضي الله عنه قال لمن حوله: أخرجوا فراشي إلى صحن الدار قال: فرفع رأسه إلى السماء، ثمّ قال: " **اللهم! إني أحتسب نفسي عندك، فإنّها أعزّ الأنفس عليّ** " [٢].

- وقال بلال رضي الله عنه حين حضرته الوفاة:

" **غداً نلقى الأحبه محمّداً وحزبه** "

وكانت امرأته تقول: وابلالاه، ويقول هو: وافرحاه.

وقال من حضر وفاة عمار بن ياسر رضي الله عنه: رأيت عمار بن ياسر دعا بشراب، فأتى بقدح من لبن فشرب منه، ثم قال صدق الله

(١) . ربّانيّة لا رهبانيّة ص/١٤٢/ للشيخ أبي الحسن الندوي رحمه الله.

(٢) . الثبات عند الممات للإمام ابن الجوزي ص/١٠٣/.

ورسوله، اليوم ألقى الأحبّه، محمداً وحزبه إنّ رسول الله ﷺ قال: **(إن آخر شئ تزوده من الدنيا ضيحة لبن)** (١).

ولما طعن معاذ بن جبل رضي الله عنه - أي أصابه الطاعون - قال حين النزع: - وقد نُزع نزعاً شديداً لم ينزعه أحدٌ، فكان كلما أفاق من غمرة، فتح طرفه - ثمّ قال: " **ربّ اخنقني خنقك فوعزّتك إنّك لتعلم أنّ قلبي يحبّك** ".

وروي أنه لما حضره الموت قال: " مرحباً بالموت، زائرٌ مُغِبّ، حبيب جاء على فاقة، اللهمّ كنت أخافك فأنا اليوم أرجوك، اللهمّ إنّك تعلم أنّي لم أكن أُحبّ الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر.

ولما مرض حذيفة رضي الله عنه مرضه الذي مات فيه، قيل له: ما تشتهي. قال: أشتهي الجنّة، قالوا: فما تشتكي ؟ قال: الذنوب، قالوا: أفلا ندعو لك الطبيب ؟ قال: الطبيب أمرضني، لقد عشت فيكم علي ثلاث:

- الفقر فيكم أحبّ إليّ من الغنى.

---

(١) . المرجع السابق ص/١٠٨/.

- والضعة فيكم أحبّ إليّ من الشرف.

- وأنّ من حمدني منكم ولامني في الحقّ سواء.

ثمّ قال: أصبحنا ؟ قالوا: نعم، قال: اللهمّ إني أعوذ بك من صباح النار، حبيب جاء على فاقة، لا أفلح اليوم من ندم.

- ويقول أنس بن مالك ﷺ: لقي أخي البراء زحفاً من المشركين، فقال: أقسمت عليك يا ربّ لما منحتنا أكتافهم، وألحقتني بنبيّ الله ﷺ، فمنحوا أكتافهم، وقتل شهيداً.

- وروي أنّ أبا الدرداء ﷺ اشتكى، فدخل عليه أصحابه، فقالوا: ما تشتكي ؟ قال: أشتكي ذنوبي، قالوا فما تشتهي ؟ قال: أشتهي الجنة. قالوا: أفلا ندعو لك طبيباً ؟ قال: هو الذي أضجعني.

- وقال بعض من حضر وفاته: جئت أبا الدرداء ﷺ وهو يجود بنفسه فقال: ألا رجلٌ يعملُ لمثل مصرعي هذا، ألا رجلٌ يعمل لمثل يومي هذا، ألا رجلٌ يعمل لمثل ساعتي هذه، ثم قبض.

- ودخل مروان بن الحكم، وكان أمير المدينة على أبي هريرة ﷺ في شكواه الذي مات فيه. فقال: " شفاك الله ". فقال أبوهريرة: " **اللهمّ إنّي أحبّ لقائك فأحبّ لقائي** ". فما بلغ مروان أصحاب القطا حتى مات رحمه الله.

- وأوصى معاوية ﷺ في وصيّته، ببعض الأمور، وجاء في ختامها قوله ﷺ: " **وخلّوا بين معاوية وأرحم الراحمين** ".

- ولما أسر عبد الله بن حذافة ﷺ، وأرادوا قتله بكى، وعندما سئل عن بكائه قال: إنما أبكي إذ ليس لي إلاّ نفسٌ واحدة يفعل بها هذا في الله عزّ وجلّ، كنت أحبّ أن يكون لي أنفس بعدد كلّ شعرة فيّ، ثمّ يفعل بي هذا.

- وعندما حضر الموتُ أنسَ بنَ مالكٍ ﷺ، جعل يقول: لقّنوني " **لا إله إلاّ الله** "، فلم يزل يقولها حتّى قبض رحمه الله [1].

- ويقول من شهد مقتل عمرو بن عتبة ﷺ: خرجنا في جيش فيه عمرو بن عتبة فخرج وعليه جبةٌ جديدة بيضاء، فقال: ما أحسن الدم يتحدر على هذه، فخرج فتعرض للقصر فأصابه حجرٌ فشجّه، فتحدر عليها الدم، ثمّ مات منها. فلمّا أصابه الحجر فشجّه جعل يلمسه بيده ويقول: إنّها لصغيرة، وإنّ الله عزّ وجلّ ليبارك في الصغير.

- وقال مطرف ﷺ لما حضره الموت: اللهمّ خر لي في الذي قضيته عليّ من أمر الدنيا والآخرة، وأمرهم أن يحملوه إلى قبره، فختم فيه القرآن قبل أن يموت.

---

(١) . المرجع السابق من ص /١٢٩/ إلى /١٣٣/ .

- ومات مجاهد بن جبر رحمه الله وهو ساجد، وكان من أعلام التابعين، والأئمّة المفسّرين.

- ولما احتضر عمر بن عبد العزيز ﷺ قال: اخرجوا عني فلا يبقى أحد، فخرجوا، وقعدوا على الباب فسمعوه يقول: مرحباً بهذه الوجوه، ليست بوجوه إنس ولا جانّ، ثمّ قال: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ القصص.

ثم هدأ الصوت فقال مسلمة لفاطمة: قد قبض صاحبك، فوجدوه قد قُبض وغُمّض وسُوّي.

- وقال الحسن بن حيّ رحمه الله: قال لي أخي في الليلة التي توفّي فيها: اسقني ماء، وكنت قائماً أصلي، فلما قضيت صلاتي أتيته بماء فقلت: يا أخي هذا ماء. قال: قد شربت الساعة. قلت: ومن سقاك، وليس في الغرفة غيري وغيرك ؟ قال: أتاني جبريل الساعة بماء فسقاني وقال لي: أنت وأخوك وأبوك من: ﴿ .. ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ النساء، وخرجت روحه.

- ولما حضرت أبا بكر بن عيّاش الوفاة بكت أخته فقال لها: لا تبكي، انظري إلى تلك الخزانة أو الزاوية التي في البيت، قد ختم أخوك في هذه الزاوية ثمانية عشر ألف ختمة [١].

- ولما حضرت آدم بن إياس الوفاة ختم القرآن وهو مسجّى، ثمّ قال: بحبي لك إلاّ رفقت بي في هذا المصرع، كنت أؤملك لهذا اليوم، كنت أرجوك ثم قال: " لا إله إلا الله " ثم قضى.

- وحدّث الإمام المحدّث أبو زرعة الرازيّ من حضر وفاته بحديث رسول الله ﷺ أنّه قال: (مَن كانَ آخرُ كلامِه: لا إله إلاّ الله دَخلَ الجنّةَ)، وتوفي بعده رحمه الله.

- وقال فتح بن شخرف: دخلت على ذي النون عند موته فقلت: كيف تجدك ؟ فقال:

أموت وما ماتَت إليك صبابتي ... ولا رويت من صدق حبّك أوطاري
مناي المنى كلّ المنى أنت لي منىً ... وأنت الغنى كلّ الغنى عند إقتاري
وأنت مدى سُؤلي وغايَةُ رغبتي ... ومؤضع آمالي ومكنون إضمَاري
تحمّل قلبي فيك ما لا أبثّهُ ... وإنْ طال سقمي فيك أو طالَ إضراري
وبين ضلوعي منك ما لا أبثّه ... ولم أبدِ بادية لأهلٍ ولا جارِ
سرائر لا يخفى عليكَ خفيّها ... وإن لم أبح حَتّى التنادي بأسراري

(١) . المرجع السابق من ص/١٣٨/ إلى ص/١٥٥/.

فهب لي نسيماً منْك أحيا بروحه وجد لي بيسرٍ منكَ يطرد إعساري

أنرت الهدىللمهتدين ولم يكن من العلم في أيديهمُ عُشْر معشارِ

وعلّمتهم علماً فباتوا بنوره وبانت لهم منه معالم أسرارِ

معاينةً للغيب حتّى كأنّها لما غاب عنها منه حاضرة الدارِ

أَلَستَ دليْل المرء إن هم تحيّروا وعصمة من أمسى على جرفٍ هارِ

قال الشيخ ابن شخرف: فلمَّا ثقل قلت له: كيف تجدك.؟ فأنشأ يقول [1]:

ومالي سوى الإطراق والصمت حيلة ووضعي على خدّي يَدي عند تذكارِ

وإن طرقتني عبرة بعد عبرة تجرّعتها حتّى إذا عيل تصباري

أفضتُ دموعاً جمّة مُستهلّة أطفّي بهَا حرّاً تَضمّن أسراري

ولست أبالي فائتاً بعد فائتٍ إذا كنت في الدارين يَا واحداً جاري

- ولما اشتدّ الأمر بحسن الغلاس طلب ماءً، فشرب، وقال: لقد أعطاني ما يتنافس فيه المتنافسون.

- وقال أبو بكر العطّار: حضرت الجنيد رحمه الله عند الموت في جماعة لأصحابنا، فكان قاعداً يصلّي، ويثني رجليه كلما أراد أن يسجد، فلم يزل كذلك حتى خرجت الروح من رجله، فثقل عليه حركتها، فمدّ رجليه وقد تورمتا، فرآه بعض أصدقائه، فقال: ما هذا يا أبا القاسم، قال: هذه نعم، الله أكبر، فلما فرغ من صلاته قال له

(١) . المرجع السابق من ص/١٥٩/ إلى ص/١٦٤/.

أبو محمد الحريري: لو اضطجعت (يا أبا القاسم). قال: يا أبا محمد، هذا وقت يؤخذ منه، الله أكبر. فلم يزل ذلك حاله حتّى مات رحمه الله.

- وقال محمّد بن حامد: كنت جالساً عند أحمد بن خضرويه، وهو في النزع، فسأل عن مسألة فدمعت عيناه. وقال: يابني! بابٌ كنت أدقه منذ خمس وتسعين سنة، هو ذا يفتح لي الساعة، ولا أدري انفتح لي بالسعادة أم بالشقاوة، وأنّى لي الجواب. وكان قد ركبه من الدين سبعمائة دينار، وحضره غرماؤه، فنظر إليهم وقال: " اللهم إني جعلت الرهون وثيقة، فأدِّ عني ". قال: فدقّ داقّ الباب، وقال: أليس هذه دار أحمد بن خضرويه ؟ فقالوا: نعم! قال: فأين غرماؤه ؟ فخرجوا فقضى عنه، ثم خرجت روحه [1].

- وغشي على خير النساج عند صلاة المغرب، ثم أفاق ونظر إلى ناحية من البيت، وقال: قف - عافاك الله - فإنما أنت عبدٌ مأمور، وأنا عبدٌ مأمور، وما أمرت به لا يفوتك، وما أمرت به يفوتني، فدعني أمضي لما أمرت به، ودعا بماء فتوضأ للصلاة ثم صلى، ثم تمدد وغمض عينيه، وتشهد فمات، فرآه بعض أصحابه في

(١) . المرجع السابق من ص/١٦٧/ إلى ص/١٧٠/.

المنام، فقال له: ما فعل الله بك ؟ قال: لا تسأل عن هذا، ولكن استرحت من دنياكم.

- وقال بعض من حضر وفاة يوسف بن الحسين الرازي: حضرنا يوسف بن الحسين الرازي وهو يجود بنفسه، فقيل له: يا أبا يعقوب قل شيئاً، فقال: " اللهم نصحت خلقك ظاهراً، وغششت نفسي باطناً، فهب لي غشّي لنفسي لنصحي لخلقك "، ثم خرجت روحه.

- ولما احتضر أبو الوَفاء بن عقيل رحمه الله بكى أهله، فقال لهم: " لي خمسون سنة أوقّع عنه، فدعوني أتَهَنَّى لمقابلته ".

- وقال أحمد أخو الإمام أبي حامد الغزالي: لما كان يوم الاثنين وقت الصبح توضأ أخي أبو حامد الغزالي وصلّى، وقال: عليّ بالكفن، فأخذه، وقبله، وتركه على عينيه، وقال: سمعاً وطاعة للدخول على الملك، ثم مدّ رجليه، واستقبل القبلة، ومات قبل الإسفار [1].

- ولما احتضر أبو بكر بن حبيب رحمه الله، وهو من شيوخ الإمام ابن الجوزيّ رحمه الله، قال له أصحابه: أوصنا، فقال: " أوصيكم بثلاث: بتقوى الله عز وجل ومراقبته في الخلوة، واحذروا مصرعي هذا، فقد عشت إحدى وستين سنة، وما كأني رأيت

(١) . المرجع السابق من ص/١٧١/ إلى ص /١٧٩/.

الدنيا، ثم قال لبعض إخوانه: انظر: هل ترى جبيني يعرق ؟ فقال: نعم. فقال: الحمد لله هذه علامة المؤمن، يريد بذلك قول رسول الله ﷺ: (المؤمن يموت بعرق الجبين) (١)، ثم بسط يده عند الموت وقال (٢):

ها قد مددت يدي إليك فردها بالفضل لا بشماتة الأعداء

- وكان أبو الوقت (عبد الأول) صالحاً كثير الذكر، يقول الإمام ابن الجوزيّ رحمه الله: حدثني أبو عبد الله التكريتي: لما احتضر (عبد الأول) أسندته إليّ فكان آخر كلمة قالها: ﴿ . . قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ يس.

- ويقول الإمام ابن الجوزيّ رحمه الله: دخلت على أبي محمد ابن الخشاب، وهو في مرض موته، وهو ساكن غير منزعج، فقال لي: عند الله أحتسب نفسي (٣).

كيف فارق الشيخ يحيى المنيري رحمه الله الحياة، واستقبل داعي الله.؟ (٤): " يقول الشيخ زين بدر العربيّ، من أخصّ أصحاب الإمام شرف الدين يحيى المنيريّ، وهو يحكي خبر وفاته، وكيف فارق

(١) . الحديث رواه .

(٢) . المرجع السابق ص/١٨٠/.

(٣) . المرجع السابق ص/١٨٢/.

(٤) . ربّانيّة لا رهبانيّة ص/١٤٧/ للشيخ أبي الحسن الندوي رحمه الله، والخبر طويل أنقل منه ما يتّصل بالوفاة فحسب.

هذه الحياة، ولقي ربّه ؟: " وآذنت الشمس للغروب، واستلقى على السرير، وصلّى المغرب، وحوله أخصّ أصحابه، ورفع الصوت بالبسملة، وأعادها مراراً، ثمّ قال: لا إله إلاّ أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين، ثمّ جعل يبسمل، وينطق بالشهادتين، ثمّ قال: " لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، ثمّ بدأ يردّد الشهادة تتخلّلها البسملة، ثمّ قال: " لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله، ثمّ قال وقد ملكه الذوق، وفاضت الكأس بالحبّ: " محمّد، محمّد، محمّد، ثلاث مرّات، اللهمّ صلّ على محمّد، وعلى آل محمّد، وتلا: (ربّنا أنزل علينا مائدة من السماء..) ثمّ قال: رضيت بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمّد ﷺ نبيّاً، إلى آخر ما قال في المرّة الأولى، ثمّ ردّد الشهادة ثلاث مرّات، ورفع يده إلى السماء وقال في غاية الشوق والإلحاح: اللهمّ أصلح أمّة محمّد ﷺ، اللهمّ ارحم أمّة محمّد ﷺ، اللهمّ تجاوز عن أمّة محمّد ﷺ، اللهمّ أغث أمّة محمّد ﷺ، اللهمّ انصر أمّة محمّد ﷺ، اللهمّ فرّج عن أمّة محمّد ﷺ، فرجاً عاجلاً، اللهمّ اخذل من خذل دين محمّد ﷺ، برحمتك يا أرحم الراحمين، وانخفض صوته بعد ذلك، وهو يقول: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ الزخرف. لا إله إلاّ الله، ثمّ قال مرّة: " بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، وفاضت روحه ".

اللحظات الأخيرة في حياة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

يقول الشيخ زين الدين عبد الرحيم شقيق شيخ الإسلام: إنّه لما بدأ يقرأ القرآن بعدما أكمل ثمانين ختمة، ووصل إلى قوله تعالى من سورة القمر: ﴿ إنّ المتّقين.. تكمّل الآيتان ﴾ تركني وأخذ في مدارسة القرآن مع الشيخ عبد الله بن محبّ، وعبد الله الزرعيّ، وكانا في غاية من الصلاح والتقى، وأخوين شقيقين، وذلك لأنّ الشيخ إنّما كان معجباً بقراءتهما للقرآن، وما كادت تنتهي هذه المدارسة حتّى انتهت أيّام حياته " [١].

وجاء في سيرة الشاعر محمّد إقْبال أنّه في شهر نيسان من عام /١٩٣٨/ هـ أحسّ بدنوّ أجله، ولم يكن هَيّاباً ولا وجلاً، وكان يقول مردّداً باللغة العربيّة هذا البيت:

آية المؤمن أن يلقى الردى باسم الثغر سروراً ورضا

وقبيل وفاته بعشر دقائق نطق بهذين البيْتين:

نغمات مضين لي هل تعود أم نسيم من الحجاز يعود.؟

آذنت عيشتي بوَشكِ رحيلٍ هل لعلم الأسرارقلب جديد ؟ [٢].

وبعد؛ فمتى تصحو أيّها الإنسان.؟! لقد وقفت على " الدَّوْرِ " كما يقولون منذ دخلت هذه الحياة.. فما لي أراك كلّما امتدّ بك

---

(١) . من كتاب: " الحافظ أحمد بن تيمية " للشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي ص/١١٤/.

(٢) . من كتاب: " الدرّ النضيد من أعذب الأناشيد " للأستاذ حيدر مصطفى ص/٢٣/.

العمر.. وتناهبت عافيتك الأمراض والأسقام، وضعفت قواك، ووهنت عزيمتك، وتناثر الشيب في وجهك ورأسك.. تزداد تعلّقاً بالحياة وآمالاً، وتتناسى الموت.. ولعمر الحقّ ما كان لك أن تتناساه، وقد ودّعت والديك وأحبابك، وكثيراً من أقاربك وأصحابك.! فماذا تنتظر قل لي بربّك.؟!

صلّينا في الحرم المكّيّ فجر يوم على عدد من الموتى.. وتبعت جنازة بعض أقاربي، وعندما وصلنا مقبرة المعلى.. كان مشهداً جليلاً، لأوّل مرّة أراه في حياتي.. كان عدد الجنائز ستّاً أو سبعاً.. ووقف أصحابنا.. ووضعوا الميّت، ينتظرون دورهم ليدفن، وقلت في نفسي: " **الأحياء ينتظرون دورهم إلى الموت، والموتى ينتظرون دورهم إلى القبر. ! لقد تقارب الموت، وتسارعت خطاه. . ولو نظرنا بعين البصيرة لرأينا الموت أسرع خطىً، وأكثر حصداً للأنفس من هذه الجنائز القليلة. .** ".

أعرني سمعك قليلاً، قبل ألاّ تنفعك الذكرى.. ألا تعظ نفسك بما كان عمر بن الخطّاب ﷺ يعظ نفسه فيقول: " **يقولون مات فلان، ومات فلان. . وغداً يقولون مات عمر!** ".

نعم، لقد مات عمر ﷺ، ومضى على موته ما ينيف على أربعة عشر قرناً.! فماذا ترك عمر بعده.؟ لقد ترك السيرة العطرة والذكر الحسن.. الذي أسعد الأمّة، وملأ سمع الدنيا..

*** اللهم أكرمنا بحسن الخاتمة:**

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ الأنبياء.

اعلم أخي المؤمن! أنّ الناس في أمر الخاتمة ـ نسأل الله تعالى حسنها بمنّه وكرمه ـ على ثلاثة أصناف:

*** الأوّل:** من أكرمه الله تعالى بحسن الخاتمة بصورة ظاهرة، كمن قتل في سبيل الله تعالى، أو مات صائماً، أو حاجّاً، أو ختم له بذكر الله تعالى وتوحيده، أو على أيّ طاعة من الطاعات لله تعالى، أو بعد طاعة من الطاعات المكفّرة للخطايا، كمن مات بعد صيام شهر رمضان، أو بعد أداء فريضة الحجّ..

*** الثاني:** من ختم له بسوء الخاتمة، والعياذ بالله تعالى، كمن مات على معصية من المعاصي، أو كبيرة من الكبائر، أو مات مصرّاً على الكبائر، كترك الصلاة، وشرب الخمر، وأكل الربا، أو ظلم الناس والعدوان على حقوقهم، أو دعي إلى الشهادة قبل موته فرفض النطق بها.. ولا يعني سوء الخاتمة أنّه مات على الكفر، ولكنّه يخشى عليه أن يكون كذلك.. ولا نجزم بذلك، إلاّ إذا سمعنا منه الكفر، الذي لا يقبل التأويل قبل موته بقليل..

* **الثالث:** من كان مستور الحال في خاتمته، ممّن لم يكن على حال أحد الصنفين السابقين، فنرجو لهذا أن يكون عند الله تعالى حسن الخاتمة، حسنَ المآل..

فمن أراد أن يكرمه الله **بحسن الخاتمة** فعليه أن يحكم دائماً أمر التوبة النصوح، فيحاسب نفسه، ويجدّد التوبة، قال الإمام ابن رجب رحمه الله تعالى: " الناس في التوبة على أقسام:

- فمنهم من لا يوفّق لتوبة نصوح، بل ييسّر له عمل السيّئات من أوّل عمره إلى آخره، حتّى يموت مصرّاً عليها، وهذه حالة الأشقياء - والعياذ بالله تعالى.

وأقبح من ذلك من يُسّر له في أوّل عمره عمل الطاعات، ثمّ ختم له بعملٍ سيّءٍ حتّى مات عليه، كما في الحديث الصحيح: (.. وإنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنّة..) [1].

- وقسم: يفني عمره في الغفلة والبطالة، ثمّ يوفّق لعملٍ صالحٍ فيموت عليه، وهذه حالة من عمل بعمل أهل النار.. والأعمال بالخواتيم.. وهؤلاء منهم من يوقظ قبل موته بمدّة، يتمكّن فيها من التزوّد بعملٍ صالح، يختم به عمره، ومنهم من يوقظ عند حضور الموت، فيوفّق لتوبة نصوح، يموت عليها.

---

(١) جزء من حديث طويل رواه البخاريّ برقم ٦/٢٢٠/ ومسلم برقم /٢٦٤٣/.

- وقسم: هو أشرف الأقسام وأرفعها، وهو من يفني عمره في الطاعة، ثمّ يُنبّه على قرب الأجل، ليجدّ في التزوّد، ويتهيّأ للرحيل بعملٍ يصلح للقاء، ويكون خاتمة للعمل.

وتأخير التوبة في حال الشباب قبيح، وفي حال المشيب أقبح وأقبح، فإن نزل المرض بالعبد، فتأخيره للتوبة حينئذٍ أقبح من كلّ قبيح.. " ومن نزل به الشيب فهو بمنزلة الحامل، التي تمّت شهور حملها، فما تنتظر إلاّ الولادة، كذلك صاحب الشيب، لا ينتظر إلاّ الموت، فقبيح منه الإصرار على الذنب ".

* وقائع وأخبار، فهل من مدّكِر. ؟

عندما يحلّ الموت بساحة أحد الأحياء تتوقّف الحياةُ عن مسارها قليلاً.. وتتغيّرُ بعضُ الأوصاف في الناس والأشيَاء: فالأمّ ثكلى.. والزوجة أرملة.. والأطفال أيتام.. والمالُ ينتقل عن ملك الميّت إلى وارثه.. والمكَان الذي كان يملأه الإنسان فارغ بانتظار من يحلّ فيه.. وربّما ارتفع أناس، وانخفض آخرون، واغتنى أناس، وافتقر آخرون.. وتنفّس أناس الصعداء، ودالت دولة آخرين، وودّعوا ما كانوا فيه من العزّ، أو التسلّط على عباد الله..

ويودّع الأحياء ميّتَهم إلى قبره.. مهما كان عزيزاً عليهم، ويتركونه.. ولا أنيس له إلاّ عمله.. ثمّ تَستأنفُ الحيَاة دورتها.. ويمضي الناس في جدّهم ولهوهم، وتنافسهم وتكاثرهم.. ويُنسى من مات إلاّ قليلاً.. فهل من مدّكر.؟! وهل ينفع الإنسَان إلاّ نفْسه.؟! فعلام الافتتان بالناس، والاغترار بالدنيا، والجري وراء الناس، والحرص على مرضاتهم.؟!

فسبحان من يقتل الجمل ليَطعَم الكلبُ والغراب.! ويقتل الأسد لتَطعَم توافهُ الدوابّ.!

يقول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ المؤمنون.

وقَالَ تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ﴿١٧﴾ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾ ق.

ويقول سبحانه: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ الملْكُ.

فسبحان من قهر عباده بالموت، وجعل الإنسان مهما بلغ من القوّة والبأس لا يملك أمام الموت إذا نزل به أو بأحد أحبّته دفعاً ولا نفعاً.. والمادّيّون من البشر، الذين يسخر منهم الشيطان، ويتلاعب بهم في كلّ آن، لا يزالون يطمحون بما أوتوا من العلم القليل، ويؤمّلون أن يقضوا على الموت من حياة الإنسان.. وهيهات لهم هيهات.!

أسمعتَ خبر ذلك الطاغية الملحد، الذي عاث عشرات السنين فساداً في الأرض.. وما أكثر أمثاله في دنيا الناس! ثمّ جاءه الموت، وبُذل له آخر ما توصّل إليه العلم في الطبّ من أسباب.. وبقيت بعض أجهزة جسمه تعمل بطريقة كهربيّة آليّة.. ولكن ما فائدة ذلك، والجسم كلّه غَائب الوعي، فاقد الإحساس والشعور.؟!

وأمّا المؤمنون الموقنون بربِّهم فهم يعلمون أنّ الموت لا مفرّ منه، وأنّه يدرك الإنسان لا محالة، يقول الله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ.. ﴿٧٨﴾﴾ النساء.

وروي عن عليّ ﷺ أنّه قال:

أيّ يوميّ من الموت أفرّ يوم لا يقدر أم يوم قدر
يوم لا يقدر لا أرهبه ومن المقدور لا ينجو الحذر

لقد تعوّذ النبيّ ﷺ من موت الفجاءة لما أنّ الإنسان غالباً ما يكون غير مستعدّ للانتقال من هذه الدار، أو يكون على حال من الغفلة أو المعصية، فيختم له بسوء الخاتمة والعياذ بالله تعالى.. ولكنّ العاقل ينبغي أن يكون مستعدّاً للموت قبل نزول الموت، وهذا يتطلّب منه الاستقامة على دين الله في كلّ شأن من شئون حياته..

وما أكثر الأحداث والوقائع التي يعرفها كلّ إنسان منّا من موت الفجاءة.. الذي دهم بعض الناس على اختلاف أعمارهم وأحوالهم، فكان موتهم عبرة لمن حولهم، ولكنّها عبرة موقوتة قاصرة، ثمّ عاد الناس إلى ما كانوا عليه من لهو وغفلة..

وهذه الوقائع التي أقدّمها لك أخي القارئ ليست من بنات أفكاري، ولا من نسج الخيال، وإنّما هي ممّا أعرف أشخاصه حقّ المعرفة، أو ممّا سمعته من ثقاة الناس، وفيه العبرة والموعظة.. والسعيد من وعظ بغيره..

إنّها قصص ومشاهد واقعيّة، من حياتنا المعاصرة، أرويها لك، ولعلّك قد سمعت ببعضها، ولعلّك تعرف أكثر منها.. ولا نقصد بها شماتة بأحد أو تشهيراً، وإنّما نريد بها العظة للأحياء والاعتبار..

١ * مخطوبة والموت يخطبها !

ألم تسمع بخبر تلك الفتاة الجميلة الحسناء.. التي ابتسمت لها الحياة يوماً من الدهر، وأخفت لها ما لم يكن لها على بال.. لقد

خطبها شابّ ثريّ، قدّم لها ما لا تطمح فتاة إلى مثله.. ففرحت بما قدّم، وفرح بها أهلها، ومضوا في تجهيزها بكلّ ما يخطر لهم على بَال.. وعندما قاربت يوم زفافها.. دهمها مرض لم يعرف له الأطبّاءُ سبباً ولا دواء، ولم يمهلها سوى أيّام.. حتّى زفّت إلى قبرها، بدل أن تُزَفّ العروس إلى عروسها، وهاجت الأحزان بالناس أيّاماً عليها، ثمّ نسيها الناس، ونُسي خبرُها، وتزوّج مَن خَطبها.. ومضى ركبُ الحياة بأهلها.. ألم يقل الشاعر العَربيّ قَديماً:

كُلّ امرئ مُصبّحٌ في أهله والموتُ أدنى مِن شِراكِ نعلِه

٢ * في طريقه إلى الجامعة..

نال الشهادة الثانويّة بتفوّق، فتَفتّح الأملُ بالمستقبل المشرق في نَفس والديه، وأصبحت الأماني قريبة المنال، قاب قوسيْن أو أدنى.. وحمل أوراقه ذات يوم مبكّراً إلى الجامعة، واستأذن والدهُ أن يأخذ سيّارته، فالجامعةُ بعيدة، وبينَ مدخلها وعمادة القبول والتسجيل مسيرَة ربع ساعة على الأقدام.. ولكنّ والده أدركته الشفقة، وخاف عليه من حادث.! فلم يأذن له.. فركب سيّارة عامّة، ونزل أمام مدخل الجامعة في الشارع المقابل، لقد أصبح قريباً من الأمل المنشود، وما هو إلاّ أن يقطع الشارع.. وبينما يهمّ بقطع الشارع فجأته سيّارة، تطير كأنّها الريح المدبرة، فحملته على واجهة زجاجها، لتلقي به بعيداً خمسة عشر متراً، تنزف دماؤه من كلّ جسده..

ليموت بعد لحظات قليلة.! لقد خاف عليهِ والده منَ القدر.! وهَل ينجي حذرٌ من قدَر.؟! لقد تبخّر الحلم، وتوارى مع الشابّ الغضّ الإهاب تحت التراب.. ومضى الناس يصنعون لأنفسهم من الأوهام حُلماً ورديّاً جديداً..

٣ * ودّع زوجته ولم يعد إليها إلاّ محمولاً..

في الثلاثين من العمر، من أطول من رأيت من الرجال، ممتلئٌ شباباً وقوّة، لا يشكو مرضاً ولا علّة، قد وسّع الله عليه في كلّ شيء، واكتملت له مباهج الحياةِ بالزوجةِ الحسنَاء، وعدد من الأولاد.. خرج من بيته في جدّة لمصلحة تجاريّة له في ينبع، وأكّدت له زوجته ألاّ يتأخّر عليها.. فأكّد لها أنّه لن يتأخّر، فلن يأتي عليه الظهر إلاّ وهو في جدّة.. ولم يسر في طريق المدينة خمسين كيلاً، بسيّارته الفارهة الجديدة، حتّى شعر بثقلٍ في رأسه، فوقف إلى جانب الطريق، وأسند رأسه إلى مقود سيّارته.. وكان هذا آخر عهده من الدنيا.. وبعد يومين أعيد إلى زوجته محمولاً.. وتغيّر وجه الحياة لمن ترك بعده.. والبقاء لله وحده..

٤ * مات وهو مسترخٍ على مكتبه..

المراجعون له لا تنتهي أعدادهم، من أوّل ما يدخل مكتبَه إلى أن تحين ساعة انصرافه، وإنّ منهم من يلحّ عليه لينجز له معاملته، ولو تأخّر في مكتبه بعد الانصراف نصف ساعة أو أكثر.. لقد كان

يجد في عمله، وخدمة الناس لها لذّة في نفسه لا تعدلها لذّة، ولم يفكّر يوماً أن يغلق عليه مكتبه، ويحتجب دون الناس، ولو لدقائق، كشأن بعض زملائه الموظّفين.. ولكنّه اليوم يشعر بالإرهاق قد بلغ به الغاية، فلم يجد مناصاً من الاعتذار لمن في مكتبه، وأن ينتظروه خارج المكتب عشر دقائق فقط.. وأغلق الباب وراءهم، وتوسّد يديْه على مكتَبه.. وطال انتظار الناس نصف ساعة أو أكثر.. وازْدحم المراجعون أمام باب المكْتب.. ومرّ المدير، فتَعجّب.! " هل يعقل أن يكون مكتب أبي سعيد مغلقاً.؟! وحسب أنّه خارج مكتبه.. وازداد عجبه عندما قيل له: إنّه داخل المكتب، وقد أغلق عليه الباب منذ أكثر من نصف ساعة.! فارتابت نفسه ودخله الشكّ، ودفعه الريب أن ينظر إلى الرجل من الشبّاك الخلفيّ.. فوجده قد وضع رأسه على مكتبه وكأنّه نائم.. فارتاب لمنظره وهيئته.. فطرق عليه الشبّاك بقوّة.. فلم يستجب لطرقه.. وزاد في الطرق أكثر، ولكنّ الرجل مصرّ على عدم الانتباه أو المبالاة.. وشعر المدير بالحنق عليهِ لهذه السابقة غير المألوفة منه.. إنّه يغطّ في نَوم عميق.. ومتى كان المكتب مكاناً للنوم.؟! واقتُحم المكتب بعد ساعتين.. ليرى الناس أبا سعيد قد ودّع الحياة في مكتبه، الذي ألفه وأحبّه، وقضى فيه عشرين عاماً شطراً من حياته..

٥ * كان يلعب بين أترابه..

فوّاز في الصفّ الرابع الابتدائيّ.. تتوثّب نفسه نشاطاً وحركة، وحيويّة ومرحاً.. وكعادته كلّ يوم ألقى محفظة كتبه.. وعمد إلى غرفة الطعام.. فوقف أمام المائدة لحظات ينظر أنواع المأكولات التي فيها.. فقالت له والدته كعادتها: من دون طيش اجلس، وكل بهدوء، فاللعب مع رفاقك لن يضيع عليك، ولكنّ فكره كان خارج البيت كلّه.. فما هي إلاّ لحظات ولقيمات.. ثمّ كان بين رفاقه، وقد تجمّعوا قبله، واستعدّوا للعب والمرح.. وتراكض الأولاد وتدافعوا.. وتشاكسوا واختلفوا، وفضّ الكبير فيهم كما اعتادوا ذلك منازعاتهم، وعادوا إلى اللعب من جديد.. وما هي إلاّ لحظات حتّى اصطدم فوّاز ببعض رفاقه وجهاً لوجه.. فوقع على الأرض مغمىً عليه.. وعبثاً حاول رفاقه إنعاشه.. وظنّوه أوّل الأمر أنّه يتصنّع ويكذب عليهم.. ولكنّه كان فاقد الوعي تماماً.. فاضطرّوا إلى إخبار أهله.. وعندما حضر أخوه الكبير وجده قد فارق دارَ اللهو واللعب إلى غير رجعةٍ إليها..

٦ * أمام خزانة أمواله..

كان كثير من أصحابه يذكّرونه بفعل الخير بماله، فكانت كلمته لهم دائماً: " أجّلوا هذا الأمر.! "، فسمّاه بعض أصحابه: " أجّلوا هذا الأمر.! "، وربّما سبقه بعضهم بهذه الكلمة قبل أن يقولها.. حتّى استحيا من نفسه.. ولكنّها لم تطاوعه أن يستجيب يوماً،

ليقدّم شيئاً من ماله في وجه من وجوه الخير.. وربّما ندّت منه كلمات، يشكّك فيها بمن يجمع التبرّعات لأعمال الخير، ليبرّر إمساك يده، وإحجامه وتقاعسه..

وكان من عادته منذ عشرين سنة.. أن يخلو بنفسه، ويغلق عليه باب غرفته، لا ليذكر ربّه، ويؤدّي بعض حقّ ربّه عليه، وإنّما ليفتح خزانة أمواله، ويتفقّد ثرواته، فيقلّب شيئاً، ويعدّ آخر، ويفكّر في بعض أنواع الأوراق الماليّة، التي يحتفظ بها منذ سنين: أتربح اليوم أو تخسر.؟.. وربّما بقي في خلوته تلك ساعات متواصلة.. لا يكلّ ولا يملّ.!

وفي يوم من الأيّام وهو كذلك.. وبين يديه تلك الأوراق الماليّة القديمة، والحاسبة في يده يضرب ويقسم.. توقّف ذاهلاً أمام رقمٍ ظنّ أنّه غير صحيح.. فأعاد الحساب مرّة بعد مرّة.. لقد كان الرقم صحيحاً.. فازداد ذهوله، وارتعشت يداه.. فخرّ على تلك الأوراق الماليّة ميتاً.. كان شهيد المال أو قتيله.. فماذا نفعته تلك الأموال.؟!

٧ * نام ولم يستيقظ..

قبل أن ينام حدّثته نفسه أن يفطر في الغد عند ولده عبد الله.! فعقد العزم على ذلك.. وفي الصباح الباكر، مرّ على مخزن ولده فوجده مفتوحاً، فسلّم عليه، وقال له: أريد أن نفطر معاً فائتنا بالفول وقرص من " خبز البرّ " إلى هنا.. فأبى عليه ولده إلاّ أن

يذهبا إلى البيت فهو قريب، وزوجته تعدّ لهم إلى جانب الفول أطباقاً أخرى من طيّب الطعام.. فاستجاب لولده.. واحتفت به زوجة ولده.. وأفطروا جميعاً، ثمّ بدا له أن ينام مكانه.. فألحّت عليه زوجة ولده.. أن يتوجّه إلى غرفةٍ بعيدة عن ضجّة الأولاد وأصواتهم، فاستجاب لها.. **ونام نومته تلك، ولم يستيقظ..!**

٨ ❋ **مزرعة لا مثيل لها . . ! " لن تمضي على هذه المزرعة خمس سنوات، حتّى تكون أحسن مزرعة، وأجمل مزرعة في سوريّة كلّها..!** " كانت هذه كلماته مع جميع أصحابه وزملائه، وفي كلّ مناسبة.. وقضى وقته في مزرعته، لا يدّخر جهداً ولا مالاً.. وكانت تحتضن منزلاً قد بلغ به الفنّ المعماريّ غايته.. وفرّط في سبيل ذلك بجلّ واجباته، لقد كانت معشوقته من الدنيا، ينام على التفكير فيها، ويصحو على ذلك، ومنذ ثلاث سنوات لا يعرف أهله أنّه أعطاهم شيئاً من وقته، ليرفّههم، ويروّح عن أنفسهم، كما يفعل كثير من الآباء.. وكلّما ثارت عليه زوجته وأولاده كان يقول لهم: عندما تكتمل المزرعة يكون كلّ شيء.! فتعتصم زوجته بالصمت، وتعلّل نفسها بالأماني.. والأنكى من ذلك كلّه والأمرّ أنّ هذه المزرعة المعشوقة قد حملته على مدّ يديه بل ذراعيه إلى الحرام من الرشوة والاختلاس.! إنّها تتطلّب منه المال بغير حساب.. وراتبه المحدود لا يفي بنفقات أسرته، فأنى له أن يفي بمطالبها.؟! وغاب كعادته يوم

الجمعة عن البيت.. إنّه ولا شكّ في المزرعة، ولكنّ غاب يوم السبت عن عمله، واتّصل زملاؤه بالبيت، فقيل لهم: إنّه في العمل.! فأخبروا زوجته أنّه لم يحضر إلى عمله هذا اليوم.. فدخلتها الريبة لغيابه، فأرسلت أخاها ليتفقّده.. فاتّصل بها ليخبرها أنّه وجده ملقىً على الأرض أمام درجات منزله في المزرعة.. كان ميتاً قبل أن يدخله..

أفما كان حريّاً بك أيّها الإنسان أن تعير شيئاً من اهتمامك لمزرعة الآخرة.؟! ولا مفرّ لك منها.!

٩ * المتنافسات في الطعام..

منذ أشهر وهي في مباراة شديدة مع زميلاتها: من منهنّ تستطيع أن تصنع أطباقاً من الطعام أكثر خلال أربع ساعات في المطبخ.؟ وكانت هي وإحداهنّ كفرسي رهان.. " لقد صنعت حنان في الأسبوع سبعة أطباق.. ولابدّ أن أغلبها هذا الأسبوع " هذا ما قالته لزوجها في الصباح، قبل أن يخرج لعمله.. فضحك من تفكيرها كعادته، وقال لها: أسأل الله تعالى أن يشغلكنّ بما ينفع.! وقبل أن يرجع من عمله اتّصل بين ساعة وأخرى ثلاث مرّات أو أربع، ليطمئنّ على نجاح زوجته في مهمّتها.. ولكنّها لم تستجب للهاتف في كلّ مرّة: " لابدّ أنّها منهمكة في المطبخ إلى رأسها فلا تسمع الهاتف.. أو أنّها تسمع ولا تستجيب، لأنّها تريد كسب الوقت فلا وقت للهاتف اليوم.! " وعاد من عمله، وهو يعدّ في نفسه كلاماً

يداعبها به.. إنّها مرهقة حقّاً.. ولاشكّ أنّها غارقة في عملها.. " فلأخفّف عنها ببعض المداعبات.! " ودخل البيت فأحسّ بالسكون المخيف يخيّم عليه.. لا حركة ولا حِسّ.! ودخل غرفته وغيّر ثيابه، وخرج يتنحنح بصوته كيلا يفاجئ زوجته بغير شعور منها.. وعندما دخل المطبخ.. وجدها في أرض المطبخ واقعة على وجهها، وطبق الطعام بين يديها..

لقد ماتت منذ اللحظات الأولى من الصباح.. قبل أن تعدّ أيّ طبق من الطعام.!

١٠ * كان يسمع الهجاء من خصمه.. !

التنافس بين الناس على سراب الدنيا وأوهامها قصّة قديمة متجدّدة.. كم أريقت في سبيلها من دماء.! وكم انتهكت لأجلها من حرمات.! وكم اقترف الإنسان من مظالم.! وكم زيّنت الظلم للظالم.! ثمّ مضى المظلوم وظالمه، لم يأخذ أحد منهما من نشب الدنيا كثيراً ولا قليلاً.. لقد مضوا إلى الحكم العدل، الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يتجاوزه ظلم ظالم..

كانوا في نظر الناس أدباء محترمين، ولكنّ بعضهم لم يعرف من الأدب إلاّ اسمه.. اشتدّ بينهم التنافس، حتّى بلغ حدّ الكيد الذي لا يعرفه إلاّ السفهاء.. فسعى بعض العقلاء ليصلحوا بينهم، وليتهم لم يسعوا، ولم يجمعوا، وكان أحدهم مغروراً بنفسه أشدّ الغرور.. عنيداً

مشاكساً، قد أوتي لساناً سليطاً، يهذر بأقذع الكلام وأمرّه.. فكان يأبى الصلح أو اللقاء، ولكنّه استجاب بعد طول التأبّي، وفرح المصلح، واستبشر خيراً، فهذا اللقاء سيجدّد عهود الطفولة والنشأة، التي جمعت بينهم دهراً طويلاً.. وعزم المصلح إن تمّ هذا الأمر، أن يصنع لهم حفلة طعام، تكون حديث المجالس بين الناس.. وذلك بعض مقدوره، إذ هو من سراة الناس وأغنيائهم..

وافتتح المصلح المجلس بأصحابه، وتلطّف بالقول، ونثر من بديع الشعر، وقصص الاعتذار والودّ، ما يرقّق القلوب ويصفّيها، ويخلص النفوس ويزكّيها.. واستأذن بعده بالقول ذلك العنيد المشاكس، وعندما أذن له، أخذ يهدر بأنواع من الهجاء المقذع، والسباب الأدبيّ المفحش، تجاه صاحبه الذي كان يهجره.. وعبثاً حاول معه الرجل المصلح، وهو لا تهدأ له ثائرة، ولا يكفّ لسانه، وكأنّه المدفع الآليّ يهدر بالحمم والنار.. وصاحبه الذي يُسَبُّ فاغر فاه، وكأنّه في عالم آخر لا يسمع ولا يعي.! وهدأ لحظات ذلك الشكِس البذِيء..

فسمع عندها الحاضرون من صاحبه كلمة واحدة.! لقد قال: آه! وفارق الحياة.. وحسبُ ذلك الشكِس البذِيء أنّه قاتل عمدٍ بلسانه.! فهل يحكم عليه القضاة بذلك.؟ وأيّهما أهون عنده أهذه الدنيا أم هذه الخصومة التافهة.!؟

١١ * اجتمعوا على الخمر والفساد . .

رهط من أخلاّء السوء، قد اجتمعت لهم الأموال بغير حساب، وامتلأت أجسادهم بالقوّة والعافية، وطالت أوقات فراغهم وامتدّت، فكانت هذه الثلاث خمر النفوس الفارغة، والتقت بها خمر الكئوس، فكانت الليالي الطويلة تمرّ بهم، وكأنّها لحظات قليلة.. ويتشابه هؤلاء الآخرون بأولئك الأوّلين، الذين قال مغرورهم الأفّاك، وهو يغنّي لأصحابه:

حرام على هذي الديار مماتها

وحقّ لها أن تطرب الدهرَ والمدى..

ويا أيّها الناعي المذكّر إنّنا

تقوم بنا الدنيا ويخطئنا الردى.! (١).

وطاب لهم المجلس يوماً فيما يظنّون، وهم يأكلون ويلهون، ويحتسون ما حرّم الله عزّ وجلّ من الشراب.. فشرِق أحدهم ببعض طعامه، فحاول أن يسعفه بعض أصحابه، وهم يعبثون ويضحكون، وما علموا أنّ أجله كان يتربّص به، فمات بين أيديهم وهم لا يصدّقون.!

١٢ * " ما بدّي أموت! ما بدّي أموت! "

---

(١) . ومن أنتم.؟! وماذا تكونون أيّها السفهاء المخبولون.؟!

كان في الخمسين من العمر، ولكنّ من يراه يحسبه لا يتجاوز الثلاثين، لما أنّ الترفيه والبعد عن أيّ همّ قد عملا في نفسه عملهما، ولعلّ التظاهر بالشباب القوّة لهما في ذلك أثر وأيّ أثر..

وما دامت القوّة والعافية لغيره لتدوم له، ففاجأه الداء الخبيث ينخر في مخّه من حيث لا يدري.. وقرّر أولاده أن يخفوا عنه حقيقة مرضه، ممّا جعله لا يراه إلاّ وعكةً عارضة سرعَان مَا تزول، ويعود إلى ما كان عليه من اللهو والمجون، وتردّد إليه رفاق السوء وبائعات الهوى، وهم لا يفتئون يحدّثونه ببضاعة السوء.. ووجد نفسه دونهم أسيراً أو أشبه بالسجين، فكان يتطلّب من أطبّائه الخروج السريع من المستشفى، وهم يرون صحّته تتدهور وتسوء يوماً بعد يوم، ولا يستطيعون إخباره، إلاّ أنّهم يعلّلونه بضرورة الإشراف عليه، ومتابعة التحاليل الطبّيّة المتنوّعة، وكان يثور على أولاده بين الحين والآخر، يطالبهم أن يخرجوه من المستشفى، فلا يملكون إلاّ تعليله وتعليقه بالأمل.. وتدهورت صحّته، حتّى شارف الموت وقاربه، ولكنّ العودة إلى الدنيا ولهوها وعبثه فيها لا تزال تداعب خواطره.. ودخل في مراحل المرض الأخيرة، مراحل الغيبوبة الخطرة، وكان أحد أولاده البررة يلازمه ليل نهار، بينما تخلّى عنه العاقّ ومن يشبه العاقّ.. فكان عندما يصحو يذكّره ولده بوصيّته، وماذا يريد أن يقدّم لنفسه من أمواله وملايينه.. فكان يغضب من ولده، ويقول له: " ما بدّي

أموت! ما بدّي أموت! " ووصل إلى اللحظات الأخيرة من العمر فأخذ ولده يذكّره بالشهادة برفق، ويذكرها أمامه، فكان ينظر إليه بغضب، ويقول له: " **ما بدّي أموت! ما بدّي أموت!** " ونزعت منه الروح وهو يقول: " **ما بدّي أموت! ما بدّيٍ أموت!** ".

١٣ * لاهث بسيّارته.. يمشي بها مرحا..

واحزناه! ماذا جنى البعيد عن ربّه.؟! إنّه لم يجنِ إلاّ على نفسه.!

كان يعبث بسيّارته الجديدة يمنة ويسرة، ويرعب البعيدين قبل القريبين، حتّى كانت الكارثة.. وما أكثر أمثالها.! فهل من مدّكر.؟!

وهل رأيت أسفه ممّن كان الحديد أعزّ عليه من نفسه.. كانت جراحه تنزف بشدّة.. وروحه تنزع، وهو بين الحياة والموت، ويقول لمن يريد إسعافه: السيّارة.! السيّارة.! ماذا جرى للسيّارة.؟

فثار عليه بعض من حوله، وقال له: السيّارة بستّين داهية! روحك أهمّ يا بنيّ.. فأخذ يصيح بأعلى صوته ويئنّ: آه يا أمّي.. السيّارة! آه يا أمّي.. السيّارة! ولم تصل سيّارة الإسعاف إلاّ بعد أن انقطع صوته، وهدأت نفسه! لقد فارق الحياة! ولم يتمتّع بهذه السيّارة سوى بضعة أيّام.!

١٤ * راقصون لاهون.. والموت يرقبهم..

كانت أمنيةً له أن يرقص في عرس صديقه فرحاً به، بعد أن تأخّر زواجه كلّ هذه المدّة.. وكلّما رآه أعلن له هذا الوعد الذي يراه ديناً عليه.. وفي ليلة الفرح كان كثير من الأصدقاء لا يهدءون.. إنّهم يظهرون فرحاً صادقاً، لمن وقف بجانبهم في كلّ مناسبة.. واشتدّ الضجيج، وعلت أصوات الغناء والفرح، وكان أبو مختار في وسط الحلقة، يقفز عن الأرض بحركات بهرت أنظار من حوله.. وفجأة وقف ودارت به الأرض، أو الدنيا بما فيها.. ولم يدر كثير ممّن حوله ما عرض له.. وما هي إلاّ لحظات حتّى وقع مغشيّاً عليه.. ووقف الراقصون.! وتجمّع الناس عليه.. واقترب منه طبيب كان أحد الحاضرين.. وجسّ نبضه، واقترب من صدره.. وما هي إلاّ لحظات حتّى أعلن للحاضرين أنّ الرجل قد مات.!

١٥ ❋ المغنون الماجنون.. ثمّ جاءتهم شجرة الموت تسعى..

ها قد أعلنت السماء يوماً من أيّام غضبها المدمّرة.. فالعواصف تزمجر، كقطيع من الأسد الغضاب.. والأمطار تنهمر كأفواه مضخّات المياه، تملأ سيولها كلّ جنبات الطرق، وتحيلها إلى أنهار جارية.. وحذّرت الإذاعة المحلّيّة الناس ألاّ يبرحوا بيوتهم.. وليس ثمّت من ذي عقل إلاّ وقد عاش ساعات ضعفه، وتذكّر ربّه في تلك الساعات المخيفة، واعتصم بمنزله، يسمع آخر أخبار تلك العاصفة الغضوب.. ومسيرتها الهائجة..

ولكنّ قوماً قد ولعت بالعبث نفوسهم، كانوا قد أعلنوا القيام بحفلة غناء صاخب على طريقتهم التي ارتضوها، على قارعة الطريق، وفي الساحات العامّة.. إنّهم يشكّلون جمعيّة عابثة لا تعرف إلاّ اللهو والمجون، وأن تجتذب إليها كلّ يومٍ مزيداً من الأعضاء والأنصار..

ولكنّ هذا اليوم لا يسمح لهم أن ينفّذوا رغبتهم حيث يريدون، فاقترح عليهم زعيمهم أن يقيموا احتفالهم في الهواء الطلق، ليتحدّوا غضبة الطبيعة بزعمهم، وليكون من أمرهم نبأ يسير بحديثه الناس.. وأعجبوا بالفكرة، وزيّن لهم سوء أعمالهم، وتجمّعوا حيث أرادوا، وساروا إلى ضاحية من ضواحي باريس.. واستظلّوا من الريح والأمطار بشجرة ضخمة وارفة الظلال.. وكان يوماً لا عاصم فيه من أمر الله إلاّ من رحم، وبينما هم في لهوهم ومجونهم زمجرت رياح العاصفة زمجرة هائجة.. فاقتلعت الشجرة التي تظلّلهم، وكأنّها نبتة صغيرة يقتلعها طفل صغير، وحملتها فوق رءوس القوم، ولو ثبتوا في مكانهم لكان بلاؤها عليهم محدوداً، ولكنّهم هاجوا وهربوا أمامها، وكأنّهم يريدون أن يكونوا في مرماها، فوقعت عليهم، فكانت أغصانها ذات الظلال الوارفة بالأمس كأنّها مخالب الوحوش الكاسرة وأنيابها، فما نجا منهم إلاّ جريحٌ كسير، والبقيّة افترسها الموت، وباءت بسوء المصير..

١٦ * والله لا أزال أغنّي حتّى ينقطع هذا النفس. !

كان صوته للناس فتنة، وشخصه فتنة أكبر، وكان مفتوناً بنفسه على قدر فتنة الناس به، بل بصورة أكبر.. وكلّما حقّق في عمله ما يسمّيه إنجازاً كانت الفتنة به أكبر، وكان وراء تلك الفتنة أبواب للشرّ والفساد أعظم، وأدهى وأمرّ.. حتّى تهالكت قواه، وأصبح وهو في سنّ الأربعين، وكأنّه قد تجاوز الستّين.. واجتمعت كلمة الأطبّاء عليه أن لابدّ له من التخفيف عن نفسه.. فأبى عليه غروره وكبرياؤه، فتحدّى أطبّاءه.! وقال لهم: **والله لا أزال أغنّي حتّى ينقطع هذا النفس.** ! وكان يظنّها كلمة، ليس لها من تبعة.! ومضى في لجّة الهوى.. بل تمادى أكثر، وكأنّه يريد أن يغتنم ما تبقّى من كأس العمر، ولو بمثل الانتحار أو هو إليه أقرب..

ورتّب حفلة صاخبة لاهبة، كان ما وراءها أسوأ ممّا قبلها.. ودعا لها من كبار القوم ما أغرى العامّة بحضورها.. ودعا كلّ من يخطر له على بال، إنّه يريد أن يتحدّث بذكره الركبان، وأعدّ لكلّ أمر عدّته، ووقف على خشبة المسرح، وبدأ بداية أخذت ألباب الحاضرين، وثنّى بمثلها، وهاج الناس وماجوا.. وصاح صوتاً كان الأخير في حياته، ووقع على الأرض ميتاً.. لقد انقطع نَفَسُه، وبرّ بقسمه.. ويموت المرء على ما عاش عليه..

١٧ * والهاتف الجوّال على أذنه..

أقام الدنيا وأقعدها أن يملك هاتفاً جوّالاً كما يملك زملاؤه، وهدّد أهله بترك الدراسة، وترك البيت.. ورأى أبوه أنّ أهون الشرّين أن يلبّي له طلبه.. وملك الجوّال، وكان له ما أراد، ولكنّه ضيّع دراسته، وهجر البيت فلم يعد يراه أهله إلاّ لماماً.. وكان عندما يذكّر بكلامه يقول لأهله: " إذا أردتّم منّي شيئاً فاتّصلوا على الجوّال.. " وكثيراً ما يرى رقم البيت على شاشة الجوّال فلا يبالي بمن اتّصل، ولتكن أمّه المسكينة أو أبوه، ويعتذر بعد ذلك بأنّ الجوّال لم يكن معه.. كان في السيّارة.! كان بعيداً عنه.!

وتغيّرت أطوار سعدٍ، واضطربت أحواله، فربّما جلس في السيّارة تحت المنزل ساعات والجوّال على أذنه، وعندما يدخل البيت تراه عصبيّ المزاج، نابي الألفاظ مع إخوته وأخواته، وربّما تمادى به الأمر إلى والدته، فسمعت منه ما تكره، ولكنّها لا تسمعه إلاّ دعواتها الصالحة.. ونفر منه إخوته وتحاشوا الحديث معه، ولو بكلمة..

وطال به الأمر على هذا الحال، وجاء الخبر إلى أهله أنّ له رفاق سوء، وأنّ همّهم أن يصطادوا الفتيات عن طريق هذا الجوّال.. ثمّ نما خبر آخر أنّه قد هوي فتاة لجيرانهم فهو يتحدّث معها ليل نهار.. وثارت ثائرة والد الفتاة عندما بلغه الخبر، ولكن بعد أن تمادى الطرفان فيما لا تحمد عقباه.. وفي ساعة متأخّرة من بعض الليالي

سمع الناس صوت طلقات ناريّة قريبة، ففزع الناس ينظرون من نوافذ بيوتهم، ومنهم من خرج يستطلع الخبر.. كان والد الفتاة يقتل سعداً، وهو في سيّارته، والجوّال على أذنه يحدّث الفتاة، ويبثّها غرامه وأشجانه.!

فهل كانت سعادته في جوّاله.؟ لقد دفع حياته ثمن خيانته لجاره.!

١٨ * كان عوناً للظالم، وسيفاً على المظلوم. .

ما ضرّ الإنسان لو أمر بالقسط، ودعا إلى الخير، وكان عوناً على العدل والفضل.؟! أيظنّ أنّ رزقه ينقص.؟! أم يظنّ أنّه يحرم من عمله.؟! أم يظنّ أنّه يقدّم خيراً لمن ولي أمره.؟! وما ضرّ الإنسان لو وضع ميزان التعامل مع الناس ألاّ يحبّ لهم إلاّ ما يحبّ لنفسه، ولا يكره لهم إلاّ ما يكره لها.؟! إذن لنال سعادة الدنيا، ورضوان الله في الآخرة..

كان أبو سليمان عاملاً كثيراً ما شكا للناس ظلم من فوقه، وتقلّبت به الأيّام، وترقّى في مهامّه حتّى أصبح رئيساً على العمّال، يأمر وينهى، ويعاقب ويعفو، وأصبح من دونه يشكو ظلمه أكثر ممّا كان يشكو ظلم رءسائه.. وترقّى في مهامّه حتّى أصبح معاوناً للرئيس، ليس فوقه أحد من البشر سوى الرئيس.. فاشتدّ على الناس ظلمه وبغيه، وشكا الناس أمرهم إلى الرئيس، فلم يجدوا أذناً صاغية،

أو رحمةً تخفّف شيئاً من آلامهم، وبلغته شكواهم، فكاد من اشتكاه حتّى فصله من عمله.. فاستعان الناس عليه بسهام السحر، فكم من زوجة صابرة رفعت يديها تدعو على من ظلم زوجها، ورماه إلى البطالة بلا عمل.! وكم من أمّ صالحة، ترى ولدها قد سدّت في وجهه الأبواب بعدما فصله هذا الظالم من عمله.! وكم من شابّ كان يعدّ عدّته ليحصن نفسه، ففقد عمله، فأخذ يبحث في كلّ اتّجاه، وفرص العمل تلوح في وجهه ثمّ تختفي، وعندما يطلب أحدهم منه تزكيةً، يقول له بكلّ صلف: لو كنّا نزكّيك لتركناك عندنا..

وما أجهل الإنسان وأغباه، عندما لا يعلم أنّ هذه الدنيا قلّب بأهلها.! فبين عشيّة وضحاها حلّ المرض بجسد الظالم من حيث لا يحتسب، وطرح في الفراش يئنّ، ذلك الجسد الذي كان يزأر على الناس، ويهدر، ويرعب العمّال، ويجعل الوجوه عندما تراه تكفهرّ..

وكان أوّل العبر أن أرسل أبو سليمان يطلب تكاليف التداوي والنوم في المستشفى، فجاءه أحد الموظّفين ليقول له: إنّ الرئيس قد أمر بصرف مئة ريال لك بدل التداوي.. فقال: وما تفعل معي مئة ريال.؟ لقد صرفت حتّى الآن أكثر من ثلاثة آلاف ريال.؟! فقال له: هذا ما تستحقّ حسب النظام.! وكانت تلك كلمته التي يناطح الناس بها في كلّ مناسبة.! بل وقبل أيّام من مرضه.. قالها لهذا الموظّف نفسه،

عندما طلب منه تكاليف العلاج لوالدته.! فقال له الموظّف اليوم: يا أستاذ! كما تكيل تكتال.!

وجمع بعض المقرّبين منه العمّال وقال لهم: إنّ حقّاً علينا أن نزور أبا سليمان فقد نقل إلى المستشفى، وهو في حالة مرضيّة ونفسيّة صعبة، وزيارة المريض فيها أجر عظيم.! فوجم القوم ولم يتكلّم أحد! ومضت أيّام ولم يزره أحد.! وعاد صاحبه يذكّر الناس بزيارته، وأخذ يستعطفهم بكلماته، فتجرّأ بعض العمّال وقال له: يا فلان! إنّ أبا سليمان لم يترك لنفسه صاحباً، وليس من عادة الناس أن يزوروا من لا يحبّون.!

وطال مرضه واشتدّ، ولم ير تلك الأيّام الصعبة في حياته من يحمل له الودّ، أو يسمعه كلمة مواساة، وغادر الدنيا، وليس حوله أحد سوى بعض قرابته.. وتنفّس خلق كثير الصعداء لموته.!

وكان كلّ من عرفه يقول: لقد أصابته دعوة المظلومين.. فماذا أخذ من هذه الدنيا.؟! وماذا تَرك.؟!

١٩ * باعت شرفها بكلمات أو دريهمات..

في غفلة من أهلهَا أو وإهمال، أنشأت علاقات صداقةٍ كما تدّعي مع شابّ، ثمّ تبعتها مع آخر، وتمادت تلك العلاقات منْ حديث على الهاتف إلى لقاءٍ في السوق والحديقة، إلى لقاءٍ على شاطئ البحر، كانَ قصيراً ثمّ طال وطال، حتّى امتدّ إلى ساعات..

وكان الرقيبُ السائق المراقب، ثمّ حاول هؤلاء الأصدقاء أن يكون اللقاء بغير رقيب، فعرضوا عليها أن تركب سيّارة أحدهم، فلا حاجة لها إلى السائق! ولكن ما يكون العذر عند الأهل إن علموا.؟ إنّك يمكنك إرسال السائق لشراء بعض اللوازم من مركز التسوّق، ثمّ يعود إليك بعد ساعة، لتعودي معه إلى البيت.! ونجحت الحيلة أيّاماً.. كانت تعيش خلالها مع الأحلام الورديّة، والكلمات المعسولة، وينفق عليها هؤلاء الرفاق الأصدقاء! الأوفياء بسَخاء.. لقد وجدت ذاتها معهم، كما كانت تقول لهم، وأحسّت بكيانها مخلوقةً ذات حرّيّة وكرامةٍ.! وكانت تعود مع السائق إلى البيت كلّ يوم، فهي مع المدرِّسة يوماً، وعند رفيقاتها يوماً آخر، وفي مكتبة الجامعة أحياناً، ولكن ما بالها تتفنّن بالملابس والزينات وأنواع العطورات.! لا أحد يسأل، ولا أحد يستشكل، ولا أحد يدري.! إلاّ السائق.. ولكنّ هذا السائق المرافق أشبه بالدابّة العجماء، أينما توجّهها تتوجّه معك.! لا يهمّها إلاّ أن تَنال قسطها من العلف، وقسْطها من الراحة، وحظّها من الاسْتجمام أحياناً.. وفي ليلة لم تشبه مثيلاتها، ألقى بها السائق على شاطئ البحر، وأرسلته إلى مركز بعيد للتسوّق، ليشتري لها بعض المأكولات، ويعود بعد ساعتين إلى المكان نفسه.. فعاد ولم يجدها، وانتظر وانتظر.! حتّى عيل صبره، فعاد إلى أهلها، ليخبرهم بما حدث.! فجنّ جنونهم! وطار صوابهم إن كان لهم

صواب.! وبلّغوا الأمن بما جرى، واستنفرت قوى الأمن للبحث في كلّ مكان، وعثر عليها جثّة ممزّقة بعد أيّام، قد ولغ الذئاب في عرضها، ثمّ نهشوا لحمها، وتركوها في العراء للكلاب.! لقد باعت شرفها بكلمات ودريهمات، فماذا كسبت.؟! وماذا جنت.؟

٢٠ * ملأ الأرض إثماً وظلماً، وبغياً وفساداً . .

يا ابن آدم! ما ينفعك التصنّع للناس إذا كان القلب خراباً، وزرعُ حقلِك يباباً.؟! أتظنّ زينة الظاهر تغنيك عن عمران خراب الباطن.؟! أو أنّ خداع الناس ينجيك عند ربّ الناس.؟! إنّ في حفرة القبر التي تدخلها وحدَك، ولا يرضى أن يدخلها معك أقربُ الناس إليك، وأحبّك عنده.. إنّ فيها لعبرةً لك وموعظة، إنّها تقول لكَ كلّ يوم لوْ عقلت: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ مريم.

عرف الحياةَ أبو حطّاب لَهواً ولعباً، وضحكاً وهزلاً، وامتدّ به افتتانُ الناس وإعجابهم، وتزلّفهم ونفاقهم، ليتجرّأ أكثر على الظلم والإثم، فوجد في الناس من يقول له في كلّ موقف: " **أحسنت وأصبت.! ونعْمَ ما فعلْتَ!** " فتمادى في الطغْيان والشرّ، وحسب أنّ الزيف يغني عن النصح، وأنّ الباطل يضارع الحقّ.. واستمرّت به الحياة على هذه الصورة، حتّى لم يعد في نفسه ما يستنكر منها،

فرأى المعروفَ منكراً، والمنكرَ معروفاً، وظنّ الناس كلّهم على صورة ما هو عليه، فساء ظنّه بكلّ الناس كما ساءت أفعاله، وأضمر الشرّ لهم وأراده، لأنّهم لا يستحقّون في نظره سواه.. وتقلّبت به الأيّام وهو يستَمرئ الإثم والبغي، ويرى أنّه عملةٌ صعبة، وبضاعةٌ رائجة، لا يحسن التعامل بهما كلّ إنسان.. وبنى لنفسه من وراء ذلك عزّاً من الأوهام، وجبالاً من السراب كالسحاب.. وجمع حوله من رعاع الناس المنتفعين ما زاده عتوّاً وغروراً.. فهو الآمر لهم الناهي، السيّد المطاع.. والآخرون يأتون رغباً ورهباً، وعلى أسوأ احتمال بالدرهم والدينار.. ولكنّ القدرَ كان له بالمرصاد.. لقد تمادى به البغي حتّى قرّر التجارة بأنواع المخدّرات.. وأيّ خطرٍ فيما يفعل.؟! فالمال في نظره يذلّل له الصِّعاب، ويليّن الصلاب.. ودخلَ المتاهةَ، وزيّنتها له الشرَاهة، وزاد عزمَه على الإصرار، ما جنى من سراب الأموال، وفيما هو في سكرةٍ لا يصحو، وفرحٍ بالأموال بين يديه، يعدّها ولا يحصيها.. إذ جاءه عدد لا يقدّر من رجال الأمن، فأحاطوا به من كلّ جانب، وهو بين عصابة من أتباعه المجْرِمين.. فلم يضطرب أوّل الأمر بل قَالَ لهم: أينَ كبِيركم.؟ فأشاروا إليهِ، فاقترب منه، وهمس في إحدى أذنيه: " دونك ما شئت من المال.. بل خذ هذا المال الذي بين يدي كلّه، وامضِ مع جماعتك، كأنّك لم تر، ولم تسمع.! " فصرخ في وجهه ذلك الرجل الشهم، القويّ الأمين: أتساومني على أمانتي.؟!

أتشتري ديني وضميري أيّها الوغد.؟! والله إنّ أموالك الحرام لا تساوي عندي صفعة على وجهك واحدة.. وصفعه على وجهه، وهو يزمجر كالأسد الغاضب.. فأمسك به الجند من كلّ جانب، يعلو وجهه الذلّ والهوان، واقتيد إلى حيث يأوي المجرمون.. وحجر القضاء على التصرّف بأمواله أوّل ما فعل.. ثمّ حجزت أمواله إلى أن يقضى في أمره ما يقضى.. واعترف الرجل بجرائمه بإرادته، كما أغراه محاميه رجاء التخفيف عنه، وما هي إلاّ أيّامٌ معدودة حتّى كان القضاء الحازم الإعدام له مع مصادرة جميع أمواله، فكان مثله كمثل قارون: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ القصص.

٢١ * بينما كان يمكر بأهل الحقّ، ويخطّط ويدبّر..

خرج من مكتبه، وهو يرعد ويزبد، ويهدّد ويتوعّد: من سمح لكم بإطلاق هؤلاء المجرمين.؟! من سمح لكم بإطلاق هؤلاء المجرمين.؟! سأعلّمهم وأعلّمكم درساً لن تنسوه جميعاً: لو سمح لكم السيّد الوزير فلن تفعلوا شيئاً حتّى تسمعوا توجيهاتي.! ستكونون مكانهم يا... لا أحد يعطّل إرادتي.. لو جاء... لوضعته معكم.! سترون منّي ما لا يسرّكم! وما لا تعرفون.!

وارتعدت فرائص الضبّاط الثلاثة إلاّ واحداً، قال لهم بعد أن اطمأنّ إلى بعده عن المكتب: قبله فرعون قال: " أنا ربّكم الأعلى.!

" الله أكبر منه وأجلّ.! ليلة سكر تعميه، وتنسيه كلّ ما قال.. لو ترونه في بيته.. إنّه أقلّ من دجاجة جرباء.! وضحك وأضحك من معه، ولكنّ ضحكة زملائه كانت فاترة يعبث بها الخوف من جميع أطرافها..

ومضى الطاغية الصغير، وامتطى صهوة سيّارته، وساق بسرعة هوجاء، تدلّ على مبلغ غضبه وتوتّره.. وكان يخطّط، والأفكار تنثال عليه من كلّ جانب: كيف يؤدّب هؤلاء الضبّاط الذين تجاوزوا حدّهم، ولم يستجيبوا لتعليماته الصريحة.؟ هل يستطيع أحدهم أن يستنصر بالوزير، فيمنعه من الانتقام منهم.؟! ومن الوزير إنّه يخاف منه ويحسب له ألف حساب.!

كان الطريق من مبنى إدارته إلى الشارع العامّ يزيد عن ثلاثة أميال، وهو طريق ضيّق، ذو اتّجاه واحد.. وكانت سرعته فيه تزداد كلّما ازداد توتّره، وبينما هو مستَغرَق في أفكاره وسورة غضبه، كان قد قارب الشارع العامّ، وهو بتلك السرعة المجنونة، وإذ بشاحنة تسحب وراءها مقطورة، قد امتلأتا بحمولة ثقيلة، ولكنّها مسرعة سرعة لا تتناسب مع حملها.. وتأتي بين يديها سيّارة العميد الطاغية، فتعجن لحمه بحديدها، وتسحق حديدها تحت قدميها..

وتنتهي قصّة طويلة، لخرافة طاغية صغير.. في لحظة من لحظات القدر.! وزاد في عبرة الدهر أنّ اللعنات تشيّعه كلّما ذكر.!

إنّه مغرور أحمق، تحدّى ربّه بزعمه فكيف كانت عاقبته.؟ لقد كتب الله عليه الموت شرّ ميتة، فهل من مدّكر.؟!

٢٢ * مات والمصحف بين يديه:

هل سمعتم بمن يطلب الموت، والموت يفرّ منه.؟! إنّه المؤمن يطلب الموت في مظانّ مرضاة الله ومحابّه.. وهو في فسحة من الأجل، فيفرّ الموت منه، كما يفرّ الناس من الموت، وهيهات لهم.! منذ سبعين سنة والشيخ محمود يطلب الموت في مظانّه.! ويأبى عليه الموت، ولا يستجيب له.. فنعم الحارس الأجل.. ولا نامت أعين الجبناء.! وها هو اليوم، وقد تجاوز التسعين من العمر هو أزهد ما يكون في الحياة، وهي تبدو أرغب ما تكون فيه.! فإلى متى يا ربّ.؟ ولم يعد له من أنيس في الحياة سوى كتاب الله.. كان يقضي كلّ يوم ساعات أمام كتاب الله، لا يملّ من تلاوته وتدبّره.. وساعات أخرى كانت مع كتب العلم.. إنّه يريد أن يذاكر العلم، ولا ينقطع عنه.. ولعلّه أن يحشر مع أهل العلم يوم القيامة.! وصلّى الفجر بعض الأيّام، وتلا ما اعتاد عليه من الأذكار والأوراد، ثمّ بدأ بتلاوة القرآن من المصحف، فتلا سورة يس، ووقف عند آخرها.. وصعدت الروح إلى بارئها..

٢٣ * هكذا مات جدّي. !

حدّثني والدي رحمه الله عن جدّي الشيخ حمّادة رحمه الله كيف كانت وفاته فقال: إنّ والدته حدّثته وكانت ملازمة لوالده في مرضه، أنّه قام إلى المرآة صبيحة اليوم الذي توفّي فيه، فشذّب لحيته، وأخذ من شاربه، وقال لزوجته ضعي ثياب صلاتك على رأسك ألا تعلمون أنّ الضيوف سيأتون بعد قليل، ثمّ جلس في سريره، وكانت زوجته تتلو عليه ختمة القرآن، فعندما تلت سورة " الناس " سمعته يقول: الله.. وفارق الحياة..

٢٤ * كيف فارق شيخنا الحياة. ؟

فاجأ المرض العضال أستاذنا الشيخ أحمد عزّ الدين البيانونيّ، كما فاجأ أهله وتلامذته ومحبّيه، وكان في غاية الصحّة والعافية والنشاط، وهنا يتجلّى إيمان المؤمن بالله تعالى ورضاه وتسليمه.. فاستقبل الشيخ ذلك بغاية التسليم والرضا عن ربّه، واشتدّت عليه وطأة الآلام حتّى قال أطبّاؤه: " لو يعلم أعداؤه بآلامه لرحموه وأشفقوا عليه "، فصبر واحتسب، ولم يسمع منه شيء من الشكوى أو الضجر، واختفى صوته، فقال لنا ولمن كان يزوره من تلامذته ومحبّيه: " إنّ الله تعالى يريد منّي ألاّ يسمع صوتي أحد.. " وكان رحمه الله يصبّر من جاء لزيارته من تلامذته ومحبّيه.. وسافر به أبناؤه في رحلة علاج دامت أسابيع، ثمّ عاد إلينا، وقد اختفى صوته إلاّ شيئاً يسيراً، فما رأينا منه رحمه الله إلاّ التسليم والرضا عن ربّه تعالى، واستقبل الزائرين المحبّين، وهو صامت لا يتكلّم، ولم يكن من عادته

ذلك.. فشقّ الأمر عليه وعلى زائريه.. فأملى على بعض أولاده الكلمات التالية، لتقرأ على زائريه أثناء زيارته:

" بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، يحبّ الشيخ أن يتحدّث إليكم بعد هذا الغياب الطويل، وتشقّ عليه كثرة الكلام، فهو يحبّ أن يسمعكم بعض ما يحبّ أن يتحدّث به إليكم:

١ - قال الله تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ الروم.

ومن حكمة ذلك: أنّ الإنسان الغفول الجهول، وهو في حال القوّة والصحّة والغنى إذا دعا الله تعالى لا يكون دعاؤه من أعماق القلب، كما لو دعاه في حال الضعف والعلّة، والألم والفقر.. والله تعالى خلق الإنسان لعبوديّته، ولا تتحقّق العبوديّة الصادقة إلاّ بالضراعة والدعاء من أعماق القلب، بقول العبد: يا ربّ! يا ربّ!

والله تعالى حكيم رحيم، يردّ العبد في شيخوخته وهرمه إلى ضعفه، فيلجأ إلى الله بضراعةٍ صادقة، وعبوديّة حقّة، وفي الحديث الشريف: (إذا أحبّ الله عبداً ابتلاه، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط). ونعوذ بالله من عبدٍ أحمقَ جاهل، لا يرضى عن ربّه، فيما يقدّره ويقضيه، وهو الإله الحكيم الكريم، الرءوف الرحيم.؟!

٢ - وبعد هذا كلّه فالعبد ملك لله، والمالك يتصرّف في ملكه بما يشاء، ولهذا بشّر الله الصابرين ووعدهم بالأجر الوفير، الذي لم يبشّر به سواهم، قال تعالى: ﴿ . . وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ البقرة، ﴿ . . إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ الزمر، وذكر الله الصبر في القرآن الكريم بين الأمر به، والحضّ عليه في أكثر من ستّين مرّة..

٣ - مظاهر العبوديّة لله كثيرة، من صلاة وصيام وإنفاقٍ وحجّ، وتلاوة للقرآن الكريم.. ولكن في هذه كلّها حظّ للنفس، يتلذّذ المتعبّد بعبادته، والذاكر بذكره.. أمّا البلاء والآلام والأسقام إذا نزلت بالعبد شديدة مؤلمة، فلا حظّ للنفس فيها، وإنّه يضرع إلى الله تعالى في كشف البلاء، وضراعته هذه في دقائق أكثر تطهيراً لنفسه، ورفعاً في درجاته من كثير صلاة وصيام ونحو ذلك..

٤ - إذا عرف العبد هذا عاش راضياً عن ربّه سبحانه وتعالى، في الفقر والغنى، والقوّة والضعف، والصحّة والمرض، واللذّة والألم.

نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة ".

وعندما حضرت شيخنا الشيخ أحمد الوفاة، وكان طيلة مرضه، لا يترك أدباً من آداب الشريعة، أو سنّة من سنن النبيّ ﷺ.. وجاء يوم الجمعة السابع عشر من ذي الحجة من عام /١٣٩٥/ هـ، صلى الشيخ صلاة الفجر فى فراشه، ثمّ اضطجع ونام قليلاً، ثم استيقظ

ضحىً وجلس، ثم جاءته حالة غريبة، فوقف أهله وأولاده مذهولين، إذ انبعثت من داخل جوفه كلمة: " الله! **الله!** "، بصوت قوي مسموع، وكان صوته مختفياً مدة مرضه، لا تسمع منه إلا همساً خفيفاً، فما زال يكرر هذه الكلمة العظيمة الجليلة، بمثل هذا الصوت، ويتحرك بها صدره بقوة، أكثر من نصف ساعة، ثم انقطع صوته فجأة، وسكنت أطرافه، وفاضت روحه إلى بارئها. رحمه الله وأجزل مثوبته.. وهكذا يكرم الله تعالى الصالحين من عباده، فما عاشوا عليه في حياتهم، من أحوال إيمانيّة، سلوكيّة وقلبيّة، وكانت عنوان حياتهم، وسرّ سعادتهم وطمأنينتهم تختم به حياتهم، ليقدموا على ربّهم بأحسن الأعمال والأحوال، نسأل الله تعالى أن يكرمنا بذلك بمحض فضله وكرمه.. إنّه سميع مجيب، وهو أكرم مسئول.

٢٥ * مات ساجداً يدعو ربّه..

كان كثيراً ما يدعو ربّه أن يموت ساجداً.. وألف أولاده منه هذه الدعوة فلم تعد تسترعي اهتمامهم.. وكان قد اعتاد أن يستيقظ قبل الفجر بساعتين يتوضّأ، ويصلّي ما تيسّر له، ثمّ يضع أمامه المصحف يتلو ويدعو عند أكثر ما يتلو من الآيات، فإذا بقي لأذان الفجر نصف ساعةٍ تقريباً، قام وتوجّه إلى المسجد ليصلّي الفجر، ويمكث في المسجد إلى شروق الشمس، ثمّ يعود إلى بيته..

وفي هذا اليوم استيقظ كعادته، ولكنّه أيقظ العجوز، وطلب منها أن تتّصل بأولادها جميعاً ليودّعهم.! فدهشت لقوله وفوجئت، ولكنّها لم تملك أمام إصراره سوى أن تستجيب له، وأخذت الهاتف، وبدأت تتّصل بأولادهم جميعاً وتوقظهم على خبر مفاجئ أنّ والدهم يطلب منهم الحضور إليه.. بينما أبو قائد توضّأ وأخذ يصلّي ركعتين بعد ركعتين، وبعد التسليم من كلّ ركعتين كان يسأل زوجته هل حضر الأولاد.. وفي سجود الركعة الثامنة كانت الضجّة تملأ بهو المنزل، فخرجت الأمّ لاستقبال من حضر من أولادها.. وانشغلت بالسلام عليهم دقائق، ثمّ دخل الجميع إلى بيت الوالد، فرأته على حالته من السجود التي كان عليها، فارتابت في الأمر، واقتربت منه، ومسّت ساقه لتجد برد الموت قد سكن جسده.. فصاحت بغير شعور منها: " **لقد مات ساجداً.! لقد مات ساجداً.!** ".

٢٦ * بعد أيّام من توبته..

كان شابّاً قد **أَسْرَف عَلَى نفسِه**، وابتعد عن ربّه.. فلم يدع باباً من أبواب المآثم إلاّ ولجه.. ولكنّ فطرته لم تزل تحمل الكثير من الصفاء والإشراق، ساقته الأقدار إلى سعادته، أو ساقت السعادة إلى سمعه.. فاستمع إلى شريط مسجل، يفسّر فيه بعض الدعاة قول الله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن

رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ الزمر.

فرقّ قلبه، وخشعت لله جوارحه، ودمعت عيناه، وأحسّ بالحياء من الله تعالى يملك عليه مشاعره، كيف يعصي الله، ويلجّ في العصيان، وكلّ نعمة يتقلّب فيها هي من فضل الله عليه وكرمه.؟! وسمع الشريط مرّة أخرى.. وكان في ختامه: " أقبل يا أخي على الكريم ولا تتردّد! أقبل إلى أرحم الراحمين! إلى من هو أرحم بنا من آبائنا وأمّهاتنا! ومن الناس أجمعين! هل أنت في غنى عن نعمه ؟ هل أنت في غنى عن رحمته ؟ إن كنت تعصيه في جراءة، وتصرّ على عصيانه، ولا تبالي بهذه النذر، فقل له بمثل جراءتك على المعاصي: " لا حاجة لي بنعمك، ولا حاجة لي برحمتك فخذها منّي.. ولا تدع لي منها شيئاً.. " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لا يقول ذلك إلاّ جاحد كافر.. وأنت يا أخي ممّن أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن

رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ .. أقبل على الله، لتكون حبيب الله، فالتائب حبيب الله.. وإلاّ فإنّ الأجل إذا حلّ بك في ليل أو نهار، فلا ينفعك عندئذ ندم ولا اعتذار، فمدّ يدك أخي ولا تتردّد، وعاهد الله منذ هذه اللحظة، وكن رجلاً.. فالرجال بحقّ هم الأتقياء، الأوفياء بالعهود، الذين يغلبون الشيطان ولا يغلبهم.. وسترى في لذّات الدنيا الحلال من اللذّة والمتعة أضعاف أضعاف ما كنت تراه في لذّاتِها المحرّمة، لأنّك ستأخذهَا بحقّها، وببركة الله عليك فيها.. "

سمع هذه الكلمات، فتفتّحت لها مسامع قلْبه، وذرفت عيناه الدمُوع بغزارة وحرارة، فكانت إيذاناً ببدء حياة جديدة سعيدة.. فتاب إلى الله تعالى توبةً نصوحاً، وأقبل على الله بصدق، ثمّ عزفت نفسه عن الدنيا فأسهر ليله وأظمأ نهاره، ولم ير ضاحكاً
مستبشراً، وعندما لتطوّر كان يعاتب في ذلك كان يعتذر برفق، أنّ الأمر خارج عن إرادته.. ولم يلبث سوى شهر وبضعة أيّام، حتّى نزلت به حمّى حار بأمرها الأطبّاء، فلم يستطيعوا تخفيض حرارته بكلّ ما أوتوا من علم وخبرة، وكانت صحّته تتدهور تدهوراً سريعاً، وهو صابر رابط الجأش، لا تسمع منه إلا كلمات الرضا عن الله، والتسليم لقضائه وقدره، ثمّ جاءه الأجل والقرآن الكريم بين يديه، وكانت آخر آية تلاها: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ

لَهُمْ وَحُسْنُ مَئَابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ الرعد. ثمّ مال الكتاب العزيز على صدره، وأسلم الروح إلى بارئه..

٢٧ * مات محرماً ملبّياً . .

لم يكن يعرف مرضاً، أو يشكو من علّة، ولكنّه عندما عزم على السفر لأداء فريضة الحجّ حرص على زيارة جميع أقاربه ورحمه، وطلب من كلّ من زاره أن يسامحه إن صدر منه أيّ تقصير في حقّه.. وكنت ممّن زارهم، فعجبت لكلامه، وقلت: كأنّه مودّع، بل صرّح لي أنّه ربّما لا يعود إلينا، وقلت في نفسي: لعلّها كلمة يقولها كما يقولها كثير من الناس، ولا يقصدون ما وراءها.. ولكنّه والحقّ يقال كانت ذات لهجة صدق توحي بما وراءها..

وفي مكّة المكرّمة قضى أربعة أيّام كان فيها في غاية الأنس والسعادة، لا يفارق الحرم الشريف إلاّ لحاجة أو ضرورة، وهو ينتظر مع رفاقه يوم عرفة بفارغ الصبر، وبينما كان يتوضّأ ضحى بعض الأيّام، ليذهب إلى الحرم قبل ساعات.. وقع عن كرسيّ الوضوء ميتاً، ولم يشعر به أحد من رفاقه إلاّ من صوت الضجّة.. ودفن في مكّة، ولما يقضِ فريضته، ولكنّ الله تعالى كتبها له بمنّه وكرمه، ويبعث يوم القيامة محرماً ملبّياً..

٢٨ * في طريقه إلى الحرم. .

وفي المدينة المنوّرة، خرجنا ذات يوم من صلاة العصر من باب السلام، فوجدنا رجلاً في الثلاثين من العمر، ممتلئاً صحّة وشباباً، ممدّداً على الأرض، على مقربة من باب السلام، فحسبه الناس مغمىً عليه، فبادروا إلى إنعاشه، ولكنّه كان لا حراك فيه ولا نفس.. فعلمنا أنّ الأجل قد حلّ وهو مقبل على ربّه، وإلى حرم نبيّه ﷺ.. فعسى أن تكون بشرى عاجلة، بحسن الخاتمة..

إنّها ميتة يحبّها الله، ولكن أليس هناك ما هو أحبّ إلى الله.؟! أليس لو كان قد بكّر إلى الصلاة نصف ساعة، لأدركه الأجل في رحاب المسجد! فشتّان بين من يكون موته في الرحاب، ومن يموت عند الباب أو الأعتاب! وفي كلّ خير..

٢٩ * في طريقه إلى المنبر..

كنت أسمع به ولا أعرفه، وأحبّه في الله، لما أسمع من ثناء الناس عليه، وانتفاعهم بخطبه ومواعظه، قد كتب لحديثه القبول، ولمواعظه التأثير.. كان شابّاً نشيطاً، أصغر منّي سنّاً، وما علمت عنه أنّه يشكو مرضاً أو علّة.. وجاءني بعض المصلّين يوماً يقول لي: أما سمعت بخبر خطيب مسجد كذا.؟ قلت: وماله.؟!

قال: تأخّر عن الخطبة يوم الجمعة، وكنت أريد الصلاة في مسجده، ولم يكن من عادته التأخّر، فخرج جاره من المسجد، وقد رآه خارجاً من بيته قبله.. فمشى في طريق بيته، فوجده قد جلس

على درج عمارة في طريقه، ورأسه بين يديه، فظنّه يشكو صداعاً، فكلّمه فلم يجبه بشيء، فحرّكه، فوجده قد فارق الحياة، وخطبة الجمعة في جيب ثوبه، لم يتمكّن من عرضها للناس.! وما أدري أمواعظه للناس حيّاً كانت أبلغ أم موعظته للناس ميتاً.!؟

٣٠ * كان يسعى في الصلح بين زوجين..

ما أقلّ المروءة في الناس.! وما أقلّ المصلحين.! وقد كانوا فيما مضى عماد الأمّة، ولحمة وجودها وسداها.. ولكنّهم لن تنقطع خيوطهم عن مجتمعات الأمّة، لأنّ الخير فيها باقٍ وماضٍ إلى يوم القيامة..

وتأبى المروءة على أصحابها ألاّ يستجيبوا لندائها كلّما دعتهم، مهما صعبت المهمّة، أو بعدت الشقّة.. وكان من أعزّ من عرفت من رجالها أبو صالح، هذا الرجل الوادع، الخلوق الحيي المهذّب، الذي ما عهد عنه أن قال: لا، لمن طلب منه أيّ شيء في ليلٍ أو نهار.. وألف منه أهله هذه الخلائق، فكانت حياتهم معه في عنت، وكانوا يحاولون جهدهم أن يحولوا بينه وبين بعض المهمَّات والأخبار إشفاقاً عليه، وعلى أنفسهم أن يكون حظّهم منه أقلّ الحظوظ وأدناها.. ولكنّهم عبثاً كانوا يحاولون.!

جاءهم مرّة على عجلٍ فرتّب محفظة سفره.. وعندما سألته زوجته: إلى أين.؟ لم يجبها إلاّ بقوله: نريد أن نصلح بين زوجين.!

ومضى مسرعاً كانت السيّارة بانتظاره، ليمضي من حلب إلى حمص يسعى بين أسرتين مصلحاً..

وجاءت الأمطار في الطريق والسيول، واعتصم هذا الركب بسيّارته، وكانوا مع صاحبنا ثلاثة، فتوقّفوا في جانب الطريق، ريثما تهدأ الأمطار والسيول.. ولكنّها كانت تشتدّ وتزداد، حتّى استحالت الأرض من حولهم إلى ما يشبه النهر الجاري، ثمّ تمادى السيل وازداد، حتّى جرف السيّارة بمن فيها، وطغى عليها، وغمرها بلجّته، والتهم من فيها.. وعُثر عليهم بعد أيّام موتى في سيّارتهم، قد تلفّفوا ببطّانيات من شدّة البرد..

واشتدّ حزن أهله عليه، ومعارفه ومحبّيه، فرأى بعض أقاربه رجلاً من الصالحين في النوم، فقال له: ما لك يا فلان.؟! فقال له: أنا حزين على أبي صالح، فقال له: ولماذا تحزنون عليه بعد ما رأى من العزّ والكرامة.؟! قال: وماذا رأى.؟! قال: لقد استقبله في موته ثلاثة وعشرون ملكاً، وغفر الله له وأكْرمه.! فقال له: وبماذا غفر الله له.؟ قال له: بمروءته وخدمته للناس وقضاء حوائجهم..

٣١ * بعدما تابت واستجابت.!

فتن الدنيا شعبٌ وألوانٌ، لا تعدّ، ولا تقف بالإنسان عند حدّ.. إنّها لا تزال تستدرجه في دركاتها حتّى تبلغ به طريق اللاعودة.. إلاّ أن يشاء الله له الخير والهداية..

نشأت حنان في الغرب نشأة مختلفةً كلّ الاختلاف عن أبويها الملتزمين، المتزمّتين في نظرها.. وألفت حياة الحرّيّة بلا حدود ولا ضوابط، ولكنها أنفتْ بحكم فطرتها عن أن تنزلق كما انزلقت الأخريات من بني جنسها وقومها، أمّا الحجاب والصلاة، وسائر ما يميّز المسلم في سلوكه، فقد كانت تراه من نَافلة العمل، الذي يتشدّد فيه بعض الناس كأبويها بدون مبرّر..

وحاورها أبواها دون جدوى، حتّى استيأس أبوها من الجدال معها.. أمّا أمّها فكانت لا تفتأ تحاورها في كلّ مناسبة، فإذا رأت منها عناداً تركتها، وإذا رأت منها ليناً قوي طمعها في هدايتها.. ولكنّ سلوكها لم يزل كما كان، لم يتغيّر ولم يتحوّل..

وفي يوم من أيّام الصيف جاءت إلى البيت وعيناها محتقنتان بالدم من شدّة البكاء، فعندما سألتها أمّها ما الذي جرى لها.؟ أجهشت بالبكاء بصورة شديدة.! فتلطّفت بها، وضمّتها إلى صدرها، ومسحت عَن عينيها.. ثمّ أعادت عليها السؤال: ما الذي جرى لك يا حبيبتي.؟! لقد ماتت صديقتي سوزان.! وكيف ماتت.؟ بحادث سيّارة فظيع، هي وصديقها توني.! خفّفي عنك يا بنيّتي، الموت لابدّ منه، فهذَا مصيْر كلّ حيّ، ولكنّ العاقل هو الذي يفكّر فيما بعْد الموت؛ ما الذي سيكون عليه حاله ومآله ؟! وقلص الدمع من عيني حنان، وقالت باهتمام: وما الذي سيكون عليه حالنا.؟ كلّ

إنسان يا بنيّتي! على حسب عمله في هذه الحياة.. فإمّا أن يكونَ من أهل السعادة، أو من أهل الشقاء..! وكيف.؟ ألم أقل لك يا حنان دائماً: إنّ الله تعالى لم يخلقنا في هذه الحياة عبثاً، ولم يتركنا سدىً.! فلابدّ من الحساب والسؤال عن كلّ ما قدّم الإنسان، وهناك لا ينفع ندم أو اعتذار.. وأهمّ عملٍ نسأل عنه بعد توحيد الله تعالى والشهادتين هو الصلاة..

ودارت تلك الكلمات برأس حنان، فكأنّها تسمعها لأوّل مرّةٍ.. واعتصمت بالصمت دقائق.. ثمّ استأذنت من والدتها، ودخلت غرفتها..

وبقيت أيّاماً لا يطيب لها طعام ولا منام، لم تخرج من بيتها، بل لم تكد تخرج من غرفتها الخاصّة إلاّ قليلاً.. وكثر اتّصال أصدقائها، وصديقاتها عليها، ولكنّها كانت تعتذر عن الحديث مع أيّ واحد منهم.. ثمّ خرجت عن عزلتها بفكر جديد، وسلوك جديد.. لقد قرّرت التوبَةَ ممّا كانت عليه، فتغيّرَت حياتها كلّها، وأصبحت إنسانة أخرى بكلّ معنى الكلمة.. وجاءت أشهر الحجّ، فقرّر والداها أن يحجّا هذا العام، فطلبت منهما أن تكون في صحبتهما، فوافقا بكلّ ترحيب ورغبة..

وفي مكّة كانت سعادتها برؤية الكعبةِ لا توصف ولا تقدّر، فلم تكن لتبرح الحرم إلاّ لنوم أو حاجةٍ ضروريّة..

ثمّ حدث ما لم يكن في حسبان أحد.. ففي ليلةٍ من الليالي شبّ حريْق في السكن، وهبّ الناس فَزِعِيْن على أصوات الناس ورائحة الدخان، وكانت كارثة إنسانيّة مروّعة، ذهب ضحيّتها عدد من الحجّاج الأبرار.. وكان حظّ حنان أن استأثرت بها رحمة الله تعالى، وهي في أقدس البقاع، وأحبّها إلى الله تعالى.. فكانت مع هؤلاء الشهداء، نحسبهم كذلك بإذن الله..

٣٢ * بين محاضرتين..

كانت حياته دعوة إلى الله تعالى وجهاداً في سبيل دينه، لم تلن له قناة، ولم تفتر له عزيمة.. وكبر سنّه وضعفت قواه، ونصحه الأطبّاء أن يخفّف عن نفسه، فصحّته لا تسمح له بمثل ما يقدّم من جهد.. ولكنّه لم يحد عن سيرته منذ شبابه.. بل كان كلّما تقدّم به العمر وجد نفسه في سباق مع الأجل، يقتضيه أن يجتهد أكثر في العمل.. لقد كان يشهد له كلّ من عرفه، أنّه قدّم الكثير لدينه.. ولكنّه كان لا يشهد نفسه بمثل ذلك، ولا بأقلّ من ذلك.. إنّه يرى نفسه مقصّراً مفرّطاً، فكيف يغترّ بكلام الناس عنه.؟! وهذا ما كان يدفعه إلى مزيدٍ من العطاء والتضحية..

لقد آلى على نفسه ألاّ يدعى إلى خير إلاّ استجاب له، وألاّ يطلب منه معروف إلاّ وسارع في بذله.. أوليس ذلك من حقّ العلم عليه، وقد وهب حياته له، وأبلى شبابه في طلبه.؟!

وفي مؤتمر من ملتقيات الدعوة إلى الله تعالى والتدارس لهمومها، كان قبل المؤتمر يشعر بضعف قواه، ووهن جسده، ولكنّه حمل نفسه على الحضور والمشاركة حملاً، واستحضر في نفسه حرص الإخوة القائمين على المؤتمر، ومدى تأثّرهم لغيابه، فقويت عزيمته، وعظمت همّته، فحضر وأعدّ ما يشارك فيه إخوانه العلماء والدعاة، وفي محاضرة من المحاضرات كان القلم بين أصبعيه، وبعض الأوراق بين يديه، يكتب فيها بعض ملاحظاته.. وبعد المحاضرة تجمّع بين يديه كثير من المشاركين، بين مسلّم عليه، ومستفسرٍ عن صحّته، ومعبّر عن مشاعره نحوه، ثمّ استأذن إخوانه ليجلس في مكتب للاستراحة، ومع ذلك فلم يتركه بعض الناس.. وفي المكتب كان يستمع لأحد محدّثيه باهتمام، فقطع كلام محدّثه، وقال: لا إله إلاّ الله.. وأسلم الروح إلى بارئها..

٣٣ * مات في الصلاة.. وفي الطريق إلى بيت الله..!

شابّ طالب علم مُجِدّ، يتلألأ وجهه بشراً وصفاءً، ويقطر حديثه رقّة ولطفاً، حسن الهيئة والسمت، إمام وخطيب مسجد، ويا ليت كثيراً من الخطباء والأئمّة كانوا مثله، في طيب حديثه، وحسن معشره، ولطفه وذوقه، كان من برّه بمشايخه أنّه لا ينقطع عن مجالسهم وزيارتهم، وكان من أمره العجب: أنّه لا يفتر عن ذكر

الشهادة في كلّ مناسبة، وكثيراً ما ساءل إخوانه وجلساءه: ترى هل يكرمنا الله تعالى بالشهادة في سبيله.؟!

وجاءت أشهر الحجّ فعزم على أداء الفريضة، وبدأ بزيارة المدينة المنوّرة، ثمّ أحرم بالحجّ، ومعه زوجته وأولاده، واتّجه إلى مكّة المكرّمة، وعلى مقربة من مكّة المكرّمة نزل يصلّي صلاة المغرب، ووقفت سيّارات أخرى للصلاة مع الجماعة، واجتمع وراءه ما لا يقلّ عن خمسين مُصَلٍّ، وبينما هم في الصلاة إذ جاءت سيّارة مسرعةً سرعة هائجة، كأنّها العاصفة العَاتية.. فدعسته وهو قائم يصلّي، فمات من لحظته.. وأصابت آخرين كانوا وراءه بجروحٍ مختلفة..

ودفن في مكّة المكرّمة محرماً، ويبعث يوم القيامة محرماً ملبّياً، ونحسب هذه الخاتمة شهادة في سبيل الله.! طالما تمنّاها، وتحدّث عنها..

٣٤ * في لَحْظةٍ واحدة يُطوى كلّ شيء:

في لَحْظةٍ واحدة تعلّق المشْكلات المستعصيات العالقة، ويقف الجدل والحوار، وتنطفئ الحماسة اللاهبة، وتهدأ النار الثائرة، وتؤجّل الأمور إلى اليوم الموعود..

شابّ وديع لطيف، تقيّ رزين، حافظ للقرآن، في العقد الثالث من العمر، لم يمض على زواجه ثلاث سنوات، كان يستعدّ لاستقبال المولود الثاني بآمال عريضة، ونفسٍ بهيجة، وما يمنعه من

ذلك.؟! وطفله الأوّل عبد الرحمن، قد ملأ أركان البيت بهجة وأنساً، وغمر أقطار النفس أملاً وسعادة، لا يعدلها ملء الأرض ذهباً أو فضةً..

أصرّ على زوجته أنْ يشارك في لقاء الأقارب والأرحام في استراحةٍ خارج مدينة جُدّة.. فصلة الرحم -كما قال لها - أولى من النزهة وحدنا.. وحضر الغداء فأكل وزاد، كما أكل الآخرون وزادوا، وشارك في كلّ حديث ودعابة.. وهو لا يدري ماذا ينتظره.؟ وصلّى العصر مع الجماعة، واستمع ما ألقي على سمعه وسمع الآخرين من موعظة، وكان خلالها - يشهد الله - مُصغِيَ السمع حاضر القلب، ثمّ شارك بالرياضة بكرة الطائرة، ثمّ صلّى المغرب مع الجماعة، وتوجّه مع الشباب إلى المسبح.. وقال لمن حوله: إنّه لا يعرف السباحة.. فحاول بعض الشباب أن يهوّن عليه الأمر ويعلّمه.! ولكنّه بقي معتصماً بجبنه الفطريّ، كشأنِ أمثاله في هذا الأمر.. واستغرق الشباب في سباحتهم ولعبهم.. وانتبه بعضهم بعد ربع ساعة فقط لشخص في القاع.. أسفل الماء، فظنّه لأوّل وهلة أنّه سبّاح ماهر.. يغوص ويعوم.. ثمّ ظهرت جليّة الأمر.. لقد قضى صاحبنا غرقاً، في بركة ماء، لا تبلغ عشراً بعشر.. وكيف.؟! إنّه الموت يأتي بغتة، ويكون بأهون سبب..

قَالَ أحد الحاضرين: واحسرتاه على أنفسنا! كيف اختطفه الموت من بيننا، ونحن نلهو ونلعب ؟! ألا يمكن أن يكون الميت أحدنا ؟ أهكذا يمكن أن يأتينا الموت.؟! نعمْ، هكذا يمكن أن يأتيَ، وربما يأتينا كما جاء صاحبنا، فلا حصانة لأحد من الخلق عنه.. فأين العقلاء المتّعظون.؟ الذين يعتبرون، قبل أن يُعتَبرَ بِهم، ويتّعظونَ قبل أن يكونوا عظة لغيرهم.!

٣٥ * **فضيحة غير محسوبة:** طلب من زوجتِه المسكينة أن تجهّز له محفظة السفر، لأنّه يريد الذهاب لأداء العمرة.. تعجّبت زوجته أوّل الأمر لأنّها تعلم أنّ زوجها متساهل في صلاته، بعيد عن التمسّك بدينه، فمن أين أتته هذه الرغبة لأداءِ العمرة.؟! ولكنّها لم تستبعد شيئاً على قدرة الله تعالى وهدايته.. وألحّت عليه أن تصحبه في هذه الرحلة، فهي لا تقلّ عنه شوقاً إلى بيت الله الحرام.. فاعتذر لها بعدم قدرته على تكاليف السفر والإقامة، ووعدها أن تكون معه في سفرة قادمة..

وودّعته بدموع الشوق، والشفقة من الفراق، وطلبت منه الدعاء من قلبٍ يتفطّر حزناً على فوات هذا الخير، والحرمانِ من الأجر.. ومضت الأيّام، وهي تمنّي النفس بحياة جديدة مع زوجها بعد أن يعود من هذه الرحلة المباركة.. وفوجئت ضحوة يوم، وهي مشغولة بأعمال بيتها بالهاتف يرنّ، كان على الطرف الآخر الخطوط الجوّيّة..: " هذا بيت فلان ابن فلان.؟ "

- نعم، وماذا تريدون منه.؟!

- ومن يتكلّم معِي زوجته.؟! نعم أنا زوجته..

- يؤسفنا أن نقولَ لك: إنّ زوجك من جملة المفقودين من الرحلة المتّجهة من "... " إلى " بانكوك "، والتي تحطّمت بعد إقلاعها بنصف ساعة..

- ولكنّ زوجي مسافرٌ لأداء العمرة.! هذا كلام غير معقول..

– لا يا أختي! " البيانات عندنا تقول غير ذلك.. يمكنك أن تراجعي المكتب الرئيس للشركة، لتتأكّدي من البيانات المتوفّرة.. وأرجو أن تكون معلوماتي مخطئة، فأعتذر إليك مقدّماً..

فأجهشتْ بالبكاء.. وسقطت سمّاعة الهاتف من يدها.. لقد خدع زوجته بما قال لها، فهل خدع ربّه بما قصد وأراد.؟! ولم لم يحسب حساب **هذه** الفضيحة في الدنيا قبل فضيحة الآخرة وخزيها.؟!

٣٦ * خاطب بعد حين:

تزوّج أخواه منذ سنين.. ولم يزالا يلحّان عليه أن يعجّل بالزواج، فقد جمع من المال ما يقوم بتكاليف الزواج على أحسن وجه.. فعلام التأخير إذن.؟! فمضى في هذا السبيل، وخطب فتاة صالحة من أسرة تقيم في الرياض.. وفي الطريق إلى الرياض، كانت الفرحة تغمر الجميع.. لقد تحقّقت أمنية أخويه، وها هي الفرحة

تخفق أعلامها فوق رءوسهم.. وحديث كلا الأخوين في سيّارتيهما حول ترتيبات الفرح كيف ستكون.؟

وفوجئ الأخوان بالغبار يعلو سيّارة أخيهما، وهو خلفهما بمسافة يسيرة، وأخذت السيّارة تتلوّى على الطريق، وتنقلب عدّة مرّات، وكأنّها في عرض مسرحيّ خادع.. وأخرجت جثّة الخاطب ممزّقة الأوصال.. خرج من بيته خاطباً، وكان يؤمّل رغد العيش مع فتاة الأحلام شريكة العمر، فاختطفته يد المنيّة، دون ما يرجو من الأمنيّة..

٣٧ * هربت من النار فقتلها الدخان:

امرأة صالحة، تقيّة عابدة، كانت قائمة على أسرتها وبيتها خير قيامٍ، لم تبدأ عملها يوماً في المطبخ إلاّ بعد تلاوة ما تيسّر لها من القرآن، وقراءة أذكار الصباح، وصلاة ركعات من الضحى، وكعادتها كلّ يوم.. دخلت المطبخ، وابتدأت عملها، وعندما أشعلت موقد الغاز كان إلى جواره قطعة من القماش قديمة لم تنتبه إليها، فعندما اشتدّت حرارة النار احترق طرفها، فشبّت النار فيها بسرعة، فخشيت على نفسها من محاصرة النار لها، فهربت من المطبخ باتّجاه السطح، لتخبر زوجها من غرفة المنزل العليا، فوجدتها مقفلة.. فبقيت على سلّم المنزل، والنار تبعث من المطبخ دخاناً كثيفاً، وشعر الجيران بذلك، فطرقوا الباب، فسمعوا صوتها تستغيث.. ففتحوا

الباب بقوّة فكان كلّ شيءٍ قد انتهى.. لقد ماتت اختناقاً بالدخان..

٣٨ * من الإكرام إلى دار الكرامة:

كان أبو عمر مسارعاً في الخيرات، كريماً مضيافاً، قد أغدق الله عليه المال من كلّ جانبٍ، وكان لا يجد متعته إلاّ عندما ينزل الضيف بساحته، فيجتهد في إكرامه ويتفنّن، ويلتمس رغبات الضيف من حيث لا يشعر الضيف، ثمّ يقدّمها له بأسرع ما يمكن.. تلك كانت عادته وسيرته.. وزاره أحد أصدقائه، وقد طال عهده بلقائه، فلم يجد بدّاً من حبسه إلى الغداء.. ثمّ شعر برغبة صديقه أن يزور شاطئ البحر في جدّة، فسارع إلى تلبية رغبته، بما لا يدع له مجالاً للاعتذار أو التردّد.. وفي طريقه إلى البحر لم يكن مسرعاً تلك السرعة التي تنذر بالخطر.. وهل يقف شيء في وجه القدر.؟! إذ جنحت به سيّارته ذات الشمال، فارتطمت بالرصيف، فردّها إلى اليمين بقوّةٍ، فانقلبت به وبصديقه.. ففاضت روحه إلى بارئها، وكان الموعد مع الموت حقّاً موقوتاً، وحتماً مقضيّاً.. وقال الأطبّاء: " نزيف داخليّ "، وقال الموت: لا أعرف ما تقولون من الأسباب.. ".

٣٩ * لمسة كهرباء:

كان يحسّ بدنوّ أجله، كما حدّث بذلك عدداً من أصحابه، فقال له بعضهم: إن كنت صادقاً فيما تقول، فلماذا لا تتوب، وتلتزم بطاعة الله.؟! فحرّكت هذه الكلمة في نفسه داعية التوبة، فعزم عليها بصدق، وعندما انتهى من عمله كعادته، لم يغيّر ثيابه ليذهب إلى سهرة لهوه المعتادة.. وإنّما اغتسل وتوجّه إلى المسجد ليؤدّي صلاة العشاء.. وفي المسجد اصطاده دعاة الخير، فابتدأ رحلة الهداية، وحياة التوبة إلى الله والإنابة..

وافتقده رفاق السوء، لا لشيء إلاّ أنّه كان ينفق عليهم بغير حساب، وحاول بعضهم إغراءه ليعود إليهم، فكان نور الله في قلبه أعظم من دغدغات الشهوات.. وتحوّل ما كان ينفق من أمواله على رفاق السوء إلى زوجته وأولاده، وظهرت عليهم آثار النعمة، وعاشوا في بحبوحة العيش ورغده.. ولكنّ الإنسان كفّار ظلومٌ، فلم تقدّر زوجته هذه النعمة، فكانت تتذمّر منه ومن تديّنه صباح مساء.. فكان يقول لها: أيسرّك أن أعود إلى رفاق السوء، الذين كنت لهم كالبقرة الحلوب، وكنتم محرومين منّي من كلّ خير.؟ فتسكت ولا تجيبه بشيء.. ولكنّها لا تكفّ عن أذيّتها.. وآذته زوجتُه مرّة بلسانها إيذاءً شديداً، فقال لها: ستندمين حين لا ينفعك الندم، وستحرمين هذه النعمة.. وما يوم ندمك ببعيد.!

وحجّ فازداد خيراً على خير.. وفي شهر رمضان كان مقبلاً على الله أكثر من أيّ وقت مضى.. إنّه في شهر التوبة والإنابة.. شهر الخير والبرّ، والرحمة والإحسان.. ودخل محلّه التجاريَّ فرأى الثلاّجة يسحّ الماء من أسفلها، فأراد أن يمسحَه، فكان فيها ماسّ كَهربائيّ، فبلمسة واحدة خفيفة كان الأجل بانتظاره..

والشيء بالشيء يذكر: كان أحد أولادي طفلاً لا يتجاوز السنتين إلاّ قليلاً، وضع مسماراً من الحديد في مأخذ الكهرباء، فضربته الكهرباء، وخرج من المأخذ نار، فاسودّ الجدار، وأدركته وهو يبكي، والمسمار في المأخذ، ولم يصبه أذىً بحمد الله..

وسألت أحد العاملين المختَصّين في الكهرباء عن أعجب ما وقع معه، فقال: "كنت أعمل في إصلاح سلك كبير من الكهرباء بتيّار ثلاثمئة وستّين فولتاً، وطلبت من مساعدي أن يقطع عنه التيّار، فأخطأ في قطعه فأمسكت السلك، وأنا مطمئنّ إلى أنّه مقطوع في ظنّي.. فمسّتني الكهرباء مسّاً غليظاً حملني عن السلّم، وألقاني بقوّة خلف السور الذي كنت أقف دونه، وأغمي عَليَّ أكثر من ساعة.. قال: وأعرف من مسّه تيّار أخفّ من هذا فقضى عليه.. ونعم الحارس الأجل.. ".

٤٠ * غدرة بغدرة:

استمرأ في سبيل المال كلّ قبيح، وأقبح ممّا يفعل أنّه كانَ يتباهى بأفعاله الخسيسة، ولا يستحيي منها.. وعندما يبحث المجرمون الكبار عمّن يكون أداة رخيصة بيدهم يجدون من أمثَالِ هذا اللاهث وراءهم من يبيع إنسانيّته وشرفه بثمنٍ بخسٍ، ولا يفكّر في شيءٍ سوى إشباع نهمته للمَالِ، وليكن من بعده الطوفان..

وتمّ الاتّفاق معه على صفقة قتلٍ غَادر بعِشرين ألف دولار.. واستدرج ضحيّته إلى مكان الجريمة، وهو لا يعرف اسمه ولا قضيّته، ولا يفكّر إلاّ بالمبلغ الكبير، الذي ينتظره.. وغدر بضَحيّته بدمٍ بارد.. وانتشر الخبرُ بعد يومين أنّ فلاناً... هرب من.. وانتحر.. وكان التحقيق الظاهر، وطويت القضيّة إلى يوم القيامة..

وعشيّة يوم لا صبيحة بعده، تسلّم مكافأته، وهو يضحك.. بل يرقص طرباً.. والقدر يضحك كذلك.. وفي الطريق إلى بيته حاول اختصار الطريق، فدخل شارعاً ترابيّاً، ولكنّه مع طيش فكره وراء فرحته تاه في بعض منحنياته، فشطّ بعيداً عن مدخل بيته، ولم يَنتبِه إلاّ على إطلاق النار على سيّارته، فتوقّف قليلاً، ثمّ قرّر أن يترجّل، ويرفع يَديْهِ.. لاشكّ أنّه في منطقةٍ عسكريّة، وقد اشتبهت به، فتقدّم منه رجل ملثّم، وبيده رشّاش، فلم ينتظر منه كلمة واحدة.. وأفرغ رصاصات في جسده، وهو يقول له: خذها يا قاتل أبي.! فوقع جُثّةً هامدة..

وبعد أيّام.. ألقي القبض على القاتل، واعترف بجريمته بكلّ جراءة.. إنّه يرصد قاتل أبيه منذ شهر في هذا الطريق.. لقد ظنّه قاتل أبيه..

٤١ * الموت أقوى من الفرح:

كانت فرحته بعرس أخيه لا توصَف، لقد استنفر طاقته منذ أيّام من عمل إلى آخر، حتّى عجبت والدته لحاله، وقد اعتادت ألاّ يقوم بخدمة للبيت إلاّ بالمطالبة الملحّة مرّة بعد مرّة..

ويوم العرس كان يذهب ويجيء بدرّاجته في خدمات شتّى، لا يكلُّ ولا يملّ.. واجتمع الناس، وكان الفرح يتلألأ في وجوه الحاضرين، والبسمة لا تبرح الشفاه.. وسأل الوالد عن أحمد، فقيل له: لقد أرسلناه في حاجة، وسيعود قريباً، فشعر بالضيق يملأ صدره..

ومضى الناس في العرس بأهازيجه وسروره.. وفي الطريق إلى صالة الفرح كانت سيّارة الأخت الكبرى، وقد تأخّرت كثيراً عن الناس تمشي مسرعة، وكلّ من فيها يشعر بملامة الناس للتأخّر، ولحظت الأخت من بَعيد أخاها مسرعاً على درّاجته، فقالت: هذا أخي أحمد على درّاجته، لقد تعب كثيراً هذه الأيّام.. وقريباً نفرح به إن شاء الله.. ولم تكد تكمل كلامها حتّى خرجت سيّارة من شارعٍ فرعيّ، فضربت درّاجته فألقت به مسافة عشرة أمتار أو يزيد..

ووقفت سيّارة الأخت، لترى أخاها جثّة هامدة، والدماء تملأ وجهه، وتنزف من أذنيه وأنفه، وتسيل من رأسه.. فأخذت تولول وتصيح.. وتجمّع الناس حول الفتى المضرّج بدمائه، ولم يكن أمام الأخت أن تتابع طريقها لتبلّغ أهلها المجتمعين في عرس أخيها الآخر..

وعندما اقتربت من الصالة، وسمعت صوت أهازيج النساء، رفعت صوتها بولولة الحزن والموت.. فاختلطت الولولة بالأهازيج.. وشكّ الناس أوّل الأمر: أهي ولولة أم أهازيج.؟! أم هي امرأة مغفّلة، لا تعرف كيف تهزج في الفرح.؟! وعندما استطلعوا الخبر توقّف الفرح.. وتحوّل العرس إلى مأتم.. ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ النجم. وسبحان من قهر عباده بالموت.! ولله درّ شاعر المعرّة إذ يقول:

وشبيه صوت النعيّ إذا قيـ ـس بصوت البشير في كلّ نادِ

٤٢ * مستدرج إلى حتفه:

غرّ جاهل، أقرب إلى السذاجة وبراءة الفطرة، لا يعرف من شئون الدنيا شيئاً، ألقي به بين أنياب الوحوش الضارية، فماذا يرجى له.؟! إنّها باختصار قصّة نِهاية رامز، ذلك الشابّ الناشئ في أعطاف النعمة، وترف الغنى والثراء، زُيّن لوالديه أنّ السبيل إلى الجاه والمجد هو في إرسال ولَدِهم إلى بلاد الغرب، لإكمال الدراسة، وهو لم يزل غضّ الإهاب، طريّ العود.. وهناك تلقّفه رفاق السوء، وأحاطوا به من كلّ جانب، وبخاصّة أنّه من طبقةٍ غنيّةٍ معروفة في

المجتمع، فاستدرجوه إلى أبواب الشرّ والفساد، وعرّفوه على ما لا خير له فيه.. فأخذ ينفق عليهم بغير حساب، وتعمّق في إقامة علاقات مع بنات الهوى، حتّى أصبح حديث الناس، بين مشفق عليه وغابط.. وانصرف عن دراسته إلى لهوه ومجونه، إذ لا رقيب عليه ولا حسيب..

وفجأة جاء الخبر إلى والديه أنّه وجد ميتاً في الشقّة التي يسكنها.. فجنّ جنون والديه، وطار الأب إلى تلك الديار، وطالب بفتح تحقيق جنائيّ، واستعمل ما يستطيع من مالٍ وجاه، وتأكّد بعد حين أنّ الشابّ مات مسموماً.! وكان الحزن على موته أخفّ من الندامة على إرساله.. فهل نفع الحزن أو الندامة.؟!

٤٣ * شرب كأس الحمام قبل أن يشرب كأسه:

زاريني في المكتب زيارة طويلة، وأعجبت بما هو عليه من استقامة في مواقفه، مهما فاته من مصالح، ممّا أصبح عملةً نادرةً في هذا العصر.. وكان ممّا قال لي: " نحن نشقى ونتعب من أجل أولادنا.. ولكنّني لا أرضى أن أسلك أيّ سبيل ملتوٍ أو مخالف للنظام، لتحقيق أيّ مصلحة لهم.. " وبعد يومين دخل عليّ المرشد الطلاّبيّ، وقال لي: أعظم الله أجركم بوالد سامر! قلت: وأيّ سامر تعني.؟ قال: والد سامر وعامر.! قلت: " أنت غلطان.! " قال: ولماذا.؟ قلت: لأنّه أوّل أمس كان عندي هنا.! قال: والبارحة توفّي إلى رحمة

الله.! قلت: وكيف.؟ قال: كان من عادته أن يشرب الشاي بعد العصر، فدخلت عليه زوجته بالشاي، وهو جالس متّكئ في مجلسه، وصبّت له كأس الشاي وخرجت.. وبعد نصف ساعة دخلت عليه فوجدته رافع الرأس على مسند مجلسه، وهو شاخص البصر إلى السماء.. وكأس الشاي كما هي، لم يشرب منها قطرة.!

٤٤ * شبح الموت:

شابّ في مقتبل العمر، ممتلئٌ قوّةً ونشاطاً، بدأ العمل في متجر والده، فأقبلت عليه الدنيا بأحلامها الورديّة، وآمالها العريضة، فأقبل عليها بنهم الشباب، فكان لا يعرف تعباً ليعرف راحة لبدنه، وكان يعجب إذا رأى والده أو أحداً من أهله يمرض بعض الأحيان، ويقول في نفسه: كيف يمرض هؤلاء الناس.! ومرض مرّة بنزلة برد شديدة، فلزم الفراش أيّاماً، فعندما عاده والده قال له: أظنّ أنّ مرضي هو مرض الموت.! فضحك والده بملء فيه، وقال له: مرضك يا بني مرض الأكابر، إنّه مرض لا يعاد به المريض شرعاً.! فقال له: لا تهزأ منّي يا أبي! أحسّ أنّ شبح الموت يقترب منّي، بل يحيط بي.. فضحك والده أكثر، وقال له: أنت صاحب وهم يا بنيّ..

واشتدّ مرضه بعد أيّام، وحار بتشخيصه الأطبّاء، فازداد يقينه بما يقول.. وتمادى به المرض يوماً بعد يوم، والشابّ يزداد يقيناً أنّه مريض مرض الموت.. ثمّ اكتشف الأطبّاء أنّه مريض بسرطان الدم،

وأنّ المرض في مرحلة متقدّمة.. واجتهد والده في مداواته، وبذل ما يستطيع من ماله، ولكن دون جدوى.. وجاءته حال من الاستسلام لأمر الله تعالى، والرضا عن الله لا توصف، لأنّ بعض المشايخ بشّره بأنّ من يموت بهذا المرض هو من الشهداء بإذن الله..

ولم يزل يتمادى به المرض، حتّى كانت النهاية المنتظرة.. ولكلّ أجل كتاب.. فويح الشباب الغافل عن الشباب الآفل..

٤٥ * راكض إلى الله!

شابّ ناشئ في طاعة الله، جميل الصورة، حسن الهيئة، يتلألأ وجهه بنور الطاعة والإيمان، خلوق مهذّب، حيِيٌّ لا يعرف إلاّ الجدّ، والاشتغال بما يعنيه.. رأيته في صلاة الفجر أيّاماً فأحببته من قلبي، فسألت عنه فقيل لي: إنّه قريب فلان.. فقلت: لا عجب! فالشيء من معدنه لا يستغرب.. ثمّ افتقدته مدّة، فسألت عنه قريبه فقال لي: رحمه الله، نحسبه شهيداً.. قلت: وماذا تقول.؟! أنا أقصد فلاناً، وأخذت أعدّد له أوصافه، فقال لي: قد عرفت من تقصد.. لقد استأذن أمّه لزيارة أخواله في طاجاكستان، فأذنت له، وعندما وصل إلى هناك، وقام الجهاد في بلاد الشيشان، أرسل يستأذنها بغاية الأدب والبرّ أن يجاهد مع إخوانه في الشيشان، فقد قامت سوقُ الجهاد هناك.. فأذنت له، وكانت امرأة صالحة، وعندما سئلت: كيف أذنت له، وهو وحيدك.؟! قالت: " أنا على يقين أنّ جهاده

لا يقدّم أجله، وأنّ قعوده لا يزيد في عمره.. فكيف أمنعه من أمرٍ يطلب به مرضاة ربّه.؟! "، ومضى في سبيله، وشحّت الأخبار عنه، وأصبحنا نتتبّع أخبار الشيشان لعلّنا نصل إلى شيء من أخباره..

ثمّ جاءنا الخبر الذي لم يكن مستغرباً: أنّ الشابّ قضى على أرض الشيشان شهيداً.. وتأكّد الخبر برسالة تعزيةٍ ومواساةٍ لأمّه، وأنّه كان صائماً يوم استشهاده، ووصّى من معه أن يبلّغوا أمّه سلامه، ويوصوها بالصبر والاحتساب، ويطلبوا منها الدعاء له، والعفو عن تقصيره..

(رحمه الله، ولله درّه! لقد أحسن اختيار الموتة التي يموت.. ومن صدق الله صدقه..).

٤٦ * لم ينس ذكر الموت:

صديق صدوق، في العقد الرابع من العمر، معلّم بفطرته، ومربٍّ بأحواله قبل أقواله، لا يمكن أن يمرّ به مجلس دون أن يعلّم ويذكّر، وينصح ويوجّه، ولم يعرف عنه إلاّ الرفق بالناس وحسن الخلقِ، أعرفه بهذه الخلال منذ أكثر من عشرين سنة.. وكان ذكر الموت لا يبرح لسانه في كلّ مجلس.. وعندما سئل من قبل بعض محبّيه: لماذا تكثر من ذكر الموت قال: لأنّني من أهل الغفلة، فأحبّ أن أوقظ قلبي.. وأشعر أن الموت سيأتيني فجأة.. فأريد أن أكون مستعدّاً لنزوله قبل نزوله..

خرج من حلب إلى بعض الضواحي لزيارة أحد إخوانه ومحبّيه، وقال لزوجته: أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.. فقالت له: ومتى ستعود إن شاء الله.؟ فقال لها لأوّل مرّة وهو يضحك: وهل يدري أحد متى سيعود.؟ الأمر لله.. وفي الطريق حدث في السيّارة خلل فانقلبت به، وتوفّي في ساعته، وسلم من كان معه.. ﴿.. قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ.. ﴿١٥٤﴾﴾ آل عمران.

٤٧ * مات الزائر وشفي المزور:

صديقان ودودان، كانا من أخلص زملاء العمل وأصفاهم، أصيب أحدهما بداء في القلب خطير، فنقل إلى المستشفى، وخلال يومين قرّر له الأطبّاء إجراء عمليّة سريعة في القلب، وإلاّ فإنّ حياته في خطر.. وأجريت له العمليّة، وكانت ناجحة فيما يبدو.. ولكنّه بعد أيّام دخل في غيبوبة، وبقي على ذلك قرابة شهر، حتّى استيأسنا من شفائه.. وكان زميلنا أبو عمرو برّاً بصديقه غاية البرّ، لا ينقطع عن زيارته كلّ يوم، ويقول: إنّه في غربة عن أهله، ولابدّ أن نكون بجواره..

ودخلنا المدرسة ذات يوم وإذ بالخبر شائع بين الطلاّب أنّ مدرّساً قد توفّي هذه الليلة، فذهب بنا الظنّ إلى ذلك الراقد على سرير المرض منذ أسابيع.. ثمّ جاء الخبر أنّ المتوفّى أبو عمرو.. فقلت

أنا أحد الناس، وتلك من غفلتنا: " غير معقول.. إنّه سليم معافى.! " وتأكّد الخبر بعد قليل أنّ المتوفّى أبو عمرو.. وأنّ الراقد في المستشفى لا يزال على قيد الحياة.. لقد كان بالأمس يحدّثني وأحدّثه.. ثمّ زار صديقه في المستشفى، ثمّ عاد إلى البيت، فأحسّ بآلام شديدة في بطنه، فذهب إلى المستشفى، فقيل له: لابدّ من إجراء تحاليل شاملة، وبينما كانوا يجرون له تلكَ التحاليل تدهورت صحّته، وأخذ يتقيّأ دماً، ثمّ أغمي عليه وفارقَ الحياة.. وأمّا زميلنا الآخر فقد شفي، وعاد إلى عمله، ومتّع بالحياة والعافية إلى حين..

٤٨ * ودّع أصحابه قبل أن يودّع الحياة:

كان شابّاً طالب علم، حافظاً لكتاب الله، ملء السمع والبصر، يزينه الخلق الكريم والأدب الجمّ، برّاً بوالديه لم يعرف عنه موقف هفوة مع أحدهما أو سوء أدب، يسارع في خدمة الناس ولا يتلكّأ، فلا عجب أن كثر أحبابه وأصدقاؤه، وكانت منزلته الرفيعة بين الناس لا تتناسب مع حداثة سنّه..

وأدّى العمرة، وودّع أصحابه، وكان برفقته أحد أعزّ أصدقائه، فيحدّث عنه أنّه حمل معه كلّ ثيابه في سفره، وعندما سأله عن سبب ذلك قال له: أريد أن أتصدّق بها.. أليس من المستحسن أن يفعل المؤمن ذلك بين الحين والآخر..

وفي الطريق ما بين دمشق وحلب هاجمته سيّارة شحن، فلم يستطع منها مهرباً.. وكانت تحمل له قدر حِمامه..

وجاء الخبر.. فبكته أعين بسخاء.. كانت ترى فيه حلماً وأملاً.. ولكن ما يجدي البكاء.؟!

هكذا تذبل نضرة الحياة.. هكذا تطبق الشفاه.. هكذا ينسخ الحلم الجميل.. كما اختفى السراب.. وإلى الله المرجع والمآب..

٤٩ * عبث أم خطفة النوم أم الموت:

كان في مرحلة الثانويّة العامّة صاحب ذكاء متميّز، محبوباً بين رفاقه، متقدّماً عليهم في دراسته، يمنّي والداه نفسهما أن يدخل كلّيّة الطبّ، فيكون طبيباً، يعتزّون به بين الناس.. وما أكثر ما حالت المنيّة دون الأمنيّة.!

هل للإنسان أن يختبئ من القدر أو يفرّ.؟ هيهات! هيهات! فعلى الرغم من تواصل أبي سالم مع جميع أهله وأقاربه، وحرصه على المشاركة لهم في كلّ مناسبة.. إلاّ أنّه أحسّ بضيق في صدره، ورغبةٍ شديدة ألاّ يحضر عرس ابن عمّه في مكّة.. ولكن كيف يمكن الاعتذار.؟ وبم يعتذر.؟! وقلّب وجوه الرأي فلم يجد مناصاً من الحضور، فعقد العزم، وتوكّل على الله، وحمل أسرته بين سيّارته وسيّارة ابنه عليّ، ولم ينس أن يوصي ابنه بالانتباه إلى أخطاء الآخرين قبل أخطائه.. وحضروا العرس، وطال السهر حتّى لم يبق للفجر سوى ساعتين.. ولكن لابدّ من العودة إلى جدّة، فارتباطات أبي سالم كثيرة، ولا يستطيع التخلّص أو توكيل أحد ينوب عنه..

وفي الطريق كان يسير أمام سيّارة ولده، ويلحظه بالمرآة بين الحين والآخر، ولحظ أنّه يميل بسيّارته ذات اليمين وذات الشمال، فظنّ أوّل الأمر أنّ ولده يتصرّف بنوع من طيش الشباب، فتضايق منه، وقال في سرّه: ومتى كان عليّ بمثل هذا الخلق.؟! وفجأة جنحت السيّارة ذات الشمال، وتمادت في جنوحها، فصاح بأعلى صوته: الله أكبر! الله أكبر! حادث.. حادث.. وتوقّف بصورة فجائيّة، كاد بها من معه أن يرتطموا بنوافذ السيّارة وسقفها.. وهم لا يعلمون ما يجري خارجها.. ونزل يركض باتّجاه سيّارة ابنه.. كانت الدماء تنزف من رأسه وقد خرج نصف رأسه من الزجاج الأماميّ.. وطاش عقل أبي سالم، وهو يرى ولده بهذه الحالة، ولم يدر ماذا يعمل.؟! وكيف يتصرّف.؟! ووقفت السيّارات، وجاء الناس وحاولوا مساعدته.. ولكن حانّ الأجل.. ولم يعد ينفع شيء من العمل: ﴿.. قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ.. ﴿١٥٤﴾﴾ آل عمران.

ولا تسل عن حزن والديه عليه كيف كان.؟! ثمّ محت الأيّام الأحزان من الوجدان، فأصبحت من خبر كان، وتلك سنّة الله في الحياة والأحياء..

٥٠ * باحث عن الحور العين:

خلدون شابّ ناشئ في طاعة الله، في السنة الأولى من الجامعة، على درجة كبيرة من التقوى والاستقامة، لا تسنح له فسحة من الوقت إلاّ ملأها بعبادة الله وطاعته، نشيط في الدعوة إلى الله، بين رفاقه وأصدقائه، كما هو متفوّق في دراسته، لا يعرف إلاّ الجدّ والعمل، دمث الأخلاق، لا يعرف عبث الشباب ولا يعرفه..

صحبته في سفر الحجّ فكان أعجوبة في نكران نفسه، وخدمة إخوانه، وإيثارهم بالمحابّ وإيثار نفسه بالتعب..

كانت لديّ ابنة واحدة، في السنة الأولى من العمر، فكنت أمازحه أنّني أخبّئها له، فعليه أن يصبر ويصابر، فيقول لي: " لا حظّ لي في نساء الدنيا، والحور العين ينتظرنني.. من فكّر بالحور العين زهد بنساء الدنيا ".

خرج يدعو إلى الله مع فئة مؤمنة صالحة مرّة بعد مرّة، وكان يقول تواضعاً: أنا أخرج لتهذيب نفسي وخدمة إخواني، وفي إحدى المرّات قصدوا قرية كان بينها وبين قرية مجاورة خلاف ونزاع، فعندما رآهم من بعيد بعض رجال القرية أطلقوا عليهم النار بكثافة، فأصابت خلدون رصاصة بمقتل، فلم يبرح مكانه، ولم يصب أحد معه بشيء.. ونحسبه شهيداً، ولا نزكّي على الله أحداً.. ولعلّ الحور العين كنّ بانتظاره في تلك الدار..

وبعد؛ فأنا يقين أنّ القارئ الكريم يعلم من قصص خاتمة بعض الأمـوَاتِ وأخبـارهم الشـيء الكثير.. وقـد يعلـم مـا هـو أعجـب ممّـا كتبـت، وأكثـر موعظـة واعتبـاراً، وإنّمـا أردت بمـا جمعـت أن يكـونَ منشّطاً للذاكرة، ليـذّكّر الإنسـان مـا نسـي، ويعتبر بمـن مضـى.. وتقرِيعاً لنفسـي اللاهيـة الغافلـة، وقلبـي الغـارقِ في غمـراتِ الهـوى والتصـابي.. وقدْ عـمّ الشيب وطـمّ، وعمّـا قريب تكـون الخاتمـة، وأسـأل الله تعـالى وأرجوه أن تكون على أحبّ العمل إليه، بمنّه وفضله، ولطفه وكرمه..

وإذَا وقف من بعدي على ما كتبت، وانتفع بما سطّرْتُ، فأرجو منه أن يتفضّلَ عليّ بدعوة صالحة، كما أسأل الله تعالى أن يكون ما كتبـتُ حُجّـةً لي يـوم أقـف بـين يديـه وألقـاه، وأن يبلّغـني بـه رحمتـه ورضاه..

اللهـمَّ اجعَـل خَـيرَ عُمُرنـا آخِـرَه، وخَـيرَ عَمَلِنـا خَواتمَـه، وخَـيرَ أيّامِنا يَومَ نلقَاكَ وأنت رَاضٍ عَنّا.

۞ ۞ ۞

فصل في التعزية

قال الإمام النوويّ رحمه الله في كتابه: " الأذكار ":

" واعلم أنّ التعزية هي التصبير، وذكر ما يسلّي صاحب الميّت، ويخفّف حزنه، ويهوّن مصيبته، وهي مستحبّة، فإنّها مشتملة على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، داخلة في قول الله تعالى: ﴿ .. وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ.. ﴿٢﴾ ﴾ المائدة، وهذا من أحسن ما يستدلّ به في التعزية.

أقول: وأخصّ ممّا استدلّ به الإمام النوويّ رحمه الله على التعزية، ما جاء في الحديث عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: فَتَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَاباً بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، أَوْ كَشَفَ سِتْراً، فَإِذَا النَّاسُ يُصَلُّونَ وَرَاءَ أَبِي بَكْرٍ، فَحَمِدَ اللهَ عَلَى مَا رَأَى مِنْ حُسْنِ حَالِهِمْ رَجَاءَ أَنْ يَخْلُفَهُ اللهُ فِيهِمْ بِالَّذِي رَآهُمْ، فَقَالَ: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّمَا أَحَدٍ مِنْ النَّاسِ، أَوْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَلْيَتَعَزَّ بِمُصِيبَتِهِ بِي عَنْ الْمُصِيبَةِ الَّتِي تُصِيبُهُ بِغَيْرِي، فَإِنَّ أَحَداً مِنْ أُمَّتِي لَنْ يُصَابَ بِمُصِيبَةٍ بَعْدِي أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ مُصِيبَتِي)** [١].

([١]). رواه ابن ماجة في كتاب الجنائز برقم /١٥٨٨/.

والتعزية مستحبّة قبل الدفن وبعده، قال أصحابنا: يدخل وقت التعزية من حين يموت ويبقى إلى ثلاثة أيّام بعد الدفن، والثلاثة على التقريب لا التحديد، كذا قاله الشيخ أبو محمّد الجوينيّ من أصحابنا، قال أصحابنا: تكره التعزية بعد ثلاثة أيّام، لأنّ التعزية لتسكِيْن قلب المصاب، والغالب سكون قلبه بعد الثلاثة، فلا يجدّد له الحزن.. ".

" وأمّا لفظة التعزية فلا حجر فيها، فبأيّ لفظٍ عزّاه حصلت، واستحبّ أصحابنا أن يقول في تعزية المسلم بالمسلم: " أعظم الله أجرَك، وأحسن عزاءك، وغفر لميّتك "، وفي المسلم بالكافر: " أعظم الله أجرَك، وأحسن عزاءك "، وفي الكافر بالمسلم: " أعظم الله أجرَك، وأحسن عزاءك "، وفي الكافر بالكافر: " أخلف الله عليك " [1].

ويقول جامع هذه الرسالة: اعلم رحمك الله أنّه قد شاعت على ألسنة العامّة كلمات هي من الحكمة البليغة، ولو لم يرد لفظها في السنّة، ولكنّها تحقّق مقاصد الكتاب والسنّة، كما شاعت كلمات إذا تأمّل المؤمن معناها وجدها بعيدةً عن قصد المتكلّم ومراده؛ فمن النوع الأوّل

(١) . المرجع السابق ص/٢١٠/.

في التعزية قولهم: " يسلم الدين والإيمان " والمراد بذلك ألاّ يقع المصاب بشيء من الجزع أو التسخّط على قدر الله تعالى، ممّا يحرمه أجر الصبر والاحتساب.. ومن النوع الثاني في التعزية قولهم: " لا فجعك الله بعزيز "، ومعلوم أنّ حياة الإنسان لا تنفكّ عن المصائب والابتلاءات، وإذا لم يفجع الإنسان بعزيز فيها، فهذا يعني أنّه أوّل عزيز يفجع به أهله، وهذا عكس مرادهم من تلك الكلمة، فلينتبه المؤمن إلى كلامه، وليتفكّر بمعانيه ومراميه.

وممّا جاء من أخبار السلف في التعزية ما روى البيهقيّ في مناقب الشافعيّ رحمهما الله، أنّ الشافعيّ بلغه أنّ عبد الرحمن بن مهديّ رحمه الله مات له ابن فجزع عليه عبد الرحمن جزعاً شديداً، فبعث إليه الشافعيّ رحمه الله: يا أخي! عزّ نفسك بما تعزّي به غيرك، واستقبح من فعلك ما تستقبحه من فعل غيرك. واعلم أنّ أمضّ المصائب فقد سرور، وحرمان أجر، فكيف إذا اجمعتا مع اكتساب وزر.؟! فتناول حظّك يا أخي إذا قرب منك قبل أن تطلبه وقد نأى عنك، ألهمك الله عند

المصائب صبراً، وأحرز لنا ولك بالصبر أجراً، وكتب إليه:

من الخلود ولكن إنّي معزّيك لا أنّي على ثقةٍ
سنّة الدينِ

ولا المعــزّي، ولــو فما المعزّي بباقٍ بعد ميّته
عاشا إلى حينِ

وكتب رجل إلى بعض إخوانه يعزّيه بابنه: أمّا بعدُ؛ فإنّ الولد على والده ما عاش حزنٌ وفتنة، فإذا قدّمه فصلاة ورحمة، فلا تجزع على ما فاتك من حزنه وفتنته، ولا تضيّع ما عوّضك الله من صلاته ورحمته.

وقال موسى بن المهدي لإبراهيم بن سالم، وعزّاه بابنه:

" أسرّك وهو بليّة وفتنة، وأحزنك وهو صلوات ورحمة ؟! "

وعزّى رجل رجلاً فقال: عليك بتقوى الله والصبر، فبه يأخذ المحتسب، وإليه يرجع الجازع.

وعزّى رجل رجلاً فقال: إنّ من كان لك في الآخرة أجراً: خير ممّن كان لك في الدنيا سروراً.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنّه دفن ابناً له، وضحك عند قبره، فقيل له: أتضحك عند القبر.؟! قال: أردتّ أن أرغم أنف الشيطان.

وعن ابن جريجٍ رحمه الله قال: من لم يتعزّ عند مصيبته بالأجر والاحتساب سلا كما تسلو البهائم.

وعن حُميد الأعرج قال: " رأيت سعيد بن جبير رحمه الله يقول في ابنه ونظر إليه: إنيّ لأعلم خير خلّة فيه، قيل: ما هي ؟ قال: يموت فأحتسبه.

وعن الحسن البصريّ رحمه الله أنّ رجلاً جزع على ولده، وشكا ذلك إليه، فقال الحسن: كانَ ابنك يغيب عنك.؟ قال: نعم، كانت غيبته أكثر من حضوره، قال: فأنزله غائباً فإنّه لم يغب عنك غيبة الأجر لك فيها أعظم من هذه. فقال يا أبا سعيد! هوّنت عليّ وجدي على ابني.

وعن ميمون بن مهران قال: عزّى رجل عمر بن عبد العزيز ﷺ على ابنه عبد الملك ﷺ، فقال عمر: الأمر الذي نزل بعبد الملك أمر كنّا نعرفه، فلمّا وقع لم ننكره.

وعن بشر بن عبد الله قال: قام عمر بن عبد العزيز ﵁ على قبر ابنه عبد الملك فقال: رحمك الله يا بنيّ! فقد كنت سارّاً مولوداً، وبارّاً ناشئاً، وما أحبّ أنّي دعوتك فأجبتني.

وعن مسلمة قال: لما مات عبد الملك بن عمر كشف أبوه عن وجهه وقال: رحمك الله يا بنيّ! فقد سررت بك يوم بشّرت بك، ولقد عمرت مسروراً بك، وما أتت عليّ ساعة أنا فيها أسرّ من ساعتي هذه، أما والله إن كنت تدعو أباك إلى الجنّة.

وقال أبو الحسن المدائنيّ: دخل عمر بن عبد العزيز ﵁ على ابنه في وجعه فقال: يا بنيّ! كيف تجدك.؟ قال: أجدني في الحقّ، قال: يا بنيّ! لأن تكون في ميزاني أحبّ إليّ من أن أكون في ميزانك، فقال: يا أبت لأن يكُونَ ما تحبّ أحبّ إليّ من أن يكونَ ما أحبّ.

وعن جويرية بن أسماء، عن عمّه، أنّ إخوة ثلاثة شهدوا يوم تُستَر فاستشهدوا، فخرجت أمّهم يوماً إلى السوق لبعض شأنها، فتلقّاها رجل حضر تُستَر، فعرفته، فسألته عن أمور بنيها، فقال: استشهدوا، فقالت: مقبلين أو مدبرين.؟ قال: مقبلين، قالت: الحمد لله، نالوا الفوز، وحاطوا الذمار، بنفسي هم وأبي وأمّي، قلت: (والقول للإمام النوويّ) الذمار: بكسر الذال المعجمة، وهم

أهل الرجل وغيرهم ممّا يحقّ عليه أن يحميهم، وقولها: حاطوا: أي حفظوا ورعوا.

ومات ابن الشافعيّ رضي الله عنه فأنْشد:

وما الدهر إلاّ هكذا فصطبِر له رزيّة مالٍ أو فراق حبيب

قال أبو الحسن المدائنيّ: مات الحسن والد عبيد الله بن الحسن، وعبيد الله يومئذٍ قاضي البصرة وأميرها، فكثر من يعزّيه، فذكروا ما يتبيّن به جزع الرجل من صبره، فأجمعوا على أنّه إذا ترك شيئاً كانَ يصنعه فقد جزع [١].

(١) . انتهى كلام الإمام النوويّ رحمه الله في كتابه: " الأذكار " ص /٢١٤/.

الخاتمة

الإنسان أشبه بالكتاب.. والكتاب مؤلّف من أبواب وفصول وخاتمة، ومنه الكبير والصغير.. وعندما يصل الإنسان في سفر حياته إلى الفصلِ الأخير فإنَّهُ لا يفكّر إلاّ في الخاتمة.. وتصبح الفصول الأخرى في حياته ذكريات الماضي يذكرها، وربّما ترنّمَ بذكرها، ولكنّه لا يستطيع العودة إليها، كما لا يمكنها العودة إليه، كما قال الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يوماً لأخبره بما فعل المشيبُ

ومهما تأسّف على فواتها فإنّه لا ينفعه التأسّفُ إلاّ ضياع ما بقي من العمر، وليس ذلك من شأنِ العاقل الحريص على نجاته..

وها نحن أنهينا فصول هذا الكتاب، الذي نَتحدّثُ فيه عن الموت، ونتطلّع إلى الخاتمةِ، التي نسأل الله تعالى بمنّه وفضله حسنها.

وفي الختام: أخي المؤمن! أختي المؤمنة!

هل فكّرت في نفسك كيف ستكون ميتتك. ؟! وهل خطّطت لها. ؟

إنّ الطريق إلى الله سالك، ولابدّ لك منه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ۝٩ وَأَمَّا

مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾ الانشقاق.

فأقبل على الله حبّاً ورغباً، وتوبة وإنابة، وعبوديّة صادقة، خير لك من أن تساقَ بسياط القهر، وبأس القدر، كما يساق المجرمون، ليس لهم من حميم، ولا شفيع يطاع، وَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ، ويعرفون بسيماهم، فيؤخذ بالنواصي والأقدام..

الطريق إلى الله: أن تُحكم أمر التوبة، وتحسن اختيار الصحبة، وتقطع عن نفسك داء التسويف، وتوقن أنّ الموت لا يعرف كبيراً ولا صغيراً، ولا شابّاً ولا هرماً، ولا صحيحاً ولا عليلاً.. فليس التسويف إلاّ من الشيطان الذي لا يستطيع أن يوقعك في شباكه إلاّ اصطادك بهذا الداء الدويّ، والوباء الخفيّ، الذي أهلك به من الناس من لا يحصيهم إلاّ الله..

فاعزم يا أخي على الرشد منذ هذه اللحظة، وأقبل على الله بقلبك ولبّك، وضع نصب عينيك مرضاة ربّك، لا شيء سواها..

واعلم أنّ اهتمام الناس بك مهما بلغ، وهمٌ عاجل، وزيفٌ باطل، وسراب خادع، ومن كان محبّاً لك صادقاً نصحك مثل نصحي، وحرص على استقامتك، لأنّه حريصٌ على نجاتك..: ﴿

فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾ غافر .

يقول الله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ الواقعة.

إنّ الموت واعظ صامت، والقرآن واعظ ناطق، وقد قدّمت لك نصيحتي ناطقةً ببيّناتِ الوقائع الحقّة عن الواعظ الصامت، ودونك القرآن الكريم، وهو الواعظ الناطق: فافتح مسامع قلبك لمواعظه، واقرأ آياته بتدبّر، فإنّها كفيلة بنقلك من ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة، ومن ذلّ المعصية إلى عزّ الطاعة، ومن متاهات الضلال إلى بحبوحة الهدى..

وإنّ ابتلاء الإنسان في هذه الحياة وامتحانه لابدّ أن ينتهي، ولكن متى ينتهي.؟ وكيف ينتهي.؟ هذا ما لا يعلمه أحدٌ من البشر.. أفليس حقّاً على العاقل أن يكون على استعداد للرحيل، وما بعده في أيّ وقت.؟

وبتعبير آخر: أليس على العاقل أن يخطّط للنهاية التي تختم بها حياته.؟ أخذاً بما جاء في الأثر: " يشِيب المرْء على ما شبّ عليه، ويموت على ما شاب عليه، ويبعث على ما مات عليه.؟ " فخطّط لنفسك ما تريد أن تموت عليه، وتبعث عليه.. واسأل الله الثبات على الحقّ وحسن الختام.

وإنّها سنّة اجتماعيّة، وقاعدة شرعيّة، ومعلم من معالم المسئوليّة والجزاء فى الآخرة.. تتبدّى فيها العدالة الإلهيّة: ﴿.. وَمَا ظَلَمَنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ النحل، ﴿وَمَا ظَلَمَنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ الزخرف.

فإذا كنت تحترم نفسك، فخطّط لها كيف تموت، واطلب لنفسك الميتة الطيّبة، وإنّما تغلو الحياة إذا كانت نفسك عليك عزيزة غالية.. وإنّما ترخص إذا كانت نفسك عليك رخيصةً تافهةً.. ففي الحديث الصحيح: (.. كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو؛ فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا) [١].

ولقد وضع لك الإسلام موازين الصلاح والنجاة، فإذا تحقّقت من نفسك أنّك تملكها بإذن الله، فاعلم أنّ الآخرة خير لك من الأولى، **فلماذا ترهب الموت وتخشاه. ؟!**

---

(١) . رواه مسلم برقم /٢٢٣/ والترمذيّ في كتاب الدعوات عن رسول الله برقم/٣٤٣٩/، وابن ماجة وأحمد والدارميّ.

فعندما أحكم سلف هذه الأمّة أمرهم، وأيقنوا أنّ الموت لابدّ لهم منه، وأنّه يأتيهم بغتة، أخذوا أنفسهم بالحزم والجدّ، واجتهدوا أن يكونوا على أحسن أحوالهم من سلامة المنهج، والعمل الصالح، والإقبال على ربّهم، ورغبوا إلى الله أن يموتوا أحسن ميتة، وعندما جاءهم الموت كانوا له مترقّبين من قبل، فقال قائلهم: " حبيب جاء على فاقة.. ".

وقال بلال ﷺ: " واطرباه! غداً ألقى الأحبّة محمّداً وصحبه.. ".

وقال الخليفة الأوّل أبو بكر الصدّيق ﷺ لخالد ﷺ: " يا خالد! احرصْ على الموت توهب لك الحياة ".

وقال الإمام عليّ ﷺ: " والله لابْنُ أبي طالب آنَسُ بالموت من الطفل بثدي أمّه ".

وقال الطرمّاح بن حكيم:

فيا رَبّ لا تجعَل وَفاتيَ إن أتَت ... على شَرجَعٍ يُعلَى بخُضرِ المطارِفِ

ولكنْ شَهيداً ثاوياً في عِصَابةٍ ... يُصابُون في فَجّ مِنَ الأرضِ خَائِفِ

إذا فارقُوا دُنياهُمُ فارقُوا الأذَى ... وَصارُوا إلى مَوعُودِ مَافي الصحائفِ

فأُقتَلَ قَعصاً ثمّ يُرمَى بأعظُمي ... مُفرّقةً أوصالهُا في التنائِفِ

ويُصبحَ لحمي بطنَ نَسرٍ مَقِيلُه ... بجوِّ السمَاءِ في نُسُورٍ عَواكِفِ

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: " **بينَنا وبينهم يوْمُ الجنائز** " [١]، وإنّها لكلمة عمِيقة الدلالة، واسعة الأبعاد، تدلّ على ما قَبلها من حسن السريرة والسيرة، وحسن الخاتمة، وتدلّ على ما بعدها منْ حُسْنِ العاقبة والمآل بإذنِ الله.

فعندما جانب أهل البدَع الحقّ، ووقفوا مع أهواءِ نفوسهم، ولم تتمحّض إرادتهم لنصرة الحقّ، وابتغاء وجه الله، كان يوْمُ الجنائز يومَ خذلانهم، وكان مرآةً صادقة لما هم عليه، وما قدّموا من عمل، فانعكست عليها الحقائق بصوْرةٍ عاجلة، قَبل ذلك اليوم، الذي تُبلَى فيه السرائرُ، وتُجلى الضمَائر.. وكان موقف الأمّة كافّةً أظهر شهادة على صحّة المنهج، وسلامة القصد، إذ إنّ هذه الأمّة لا تجتمع على ضلالة بشهادة نبيّها ﷺ.

*** وفكّر يا أخي! علام تَقدُم بعد الموت. ؟**

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدريّ رضي الله عنه قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُصَلاّهُ فَرَأَى نَاساً، كَأَنَّهُمْ يَكْتَشِرُونَ، قَالَ: (أَمَا إِنَّكُمْ لَوْ أَكْثَرْتُمْ ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ لَشَغَلَكُمْ عَمَّا أَرَى، فَأَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ المَوْتِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْتِ عَلَى القَبْرِ يَوْمٌ إِلاّ تَكَلَّمَ فِيهِ فَيَقُولُ: أَنَا بَيْتُ الغُرْبَةِ، وَأَنَا بَيْتُ الوَحْدَةِ، وَأَنَا بَيْتُ التُّرَابِ، وَأَنَا بَيْتُ الدُّودِ، فَإِذَا دُفِنَ

---

(١) . يعني أهل البدع.

الْعَبْدُ المؤْمِنُ، قَالَ لَهُ القَبْرُ: مَرْحَباً وَأَهْلاً، أَمَا إِنْ كُنْتَ لأَحَبَّ مَنْ يَمْشِي عَلَى ظَهْرِي إِلَيَّ، فَإِذْ وُلِّيتُكَ اليَوْمَ، وَصِرْتَ إِلَيَّ، فَسَتَرَى صَنِيعِيَ بِكَ، قَالَ: فَيَتَّسِعُ لَهُ مَدَّ بَصَرِهِ، وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الجَنَّةِ، وَإِذَا دُفِنَ العَبْدُ الفَاجِرُ، أَوِ الكَافِرُ، قَالَ لَهُ القَبْرُ: لا مَرْحَباً وَلا أَهْلاً، أَمَا إِنْ كُنْتَ لأَبْغَضَ مَنْ يَمْشِي عَلَى ظَهْرِي إِلَيَّ، فَإِذْ وُلِّيتُكَ اليَوْمَ، وَصِرْتَ إِلَيَّ، فَسَتَرَى صَنِيعِيَ بِكَ، قَالَ: فَيَلْتَئِمُ عَلَيْهِ حَتَّى يَلْتَقِيَ عَلَيْهِ، وَتَخْتَلِفَ أَضْلاعُهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَصَابِعِهِ فَأَدْخَلَ بَعْضَهَا فِي جَوْفِ بَعْضٍ، قَالَ: وَيُقَيِّضُ اللهُ لَهُ سَبْعِينَ تِنِّيناً، لَوْ أَنّ وَاحِدًا مِنْهَا نَفَخَ فِي الأَرْضِ مَا أَنْبَتَتْ شَيْئاً مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا، فَيَنْهَشْنَهُ، وَيَخْدِشْنَهُ، حَتَّى يُفْضَى بِهِ إِلَى الحِسَابِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (إِنَّمَا القَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ، أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ) (١).

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ لِمُحَمَّدٍ ﷺ ؟ فَأَمَّا المؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنْ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَداً مِنْ الجَنَّةِ،

(١) . رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة برقم/٢٣٨٤/ وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لا نَعْرِفُهُ إلاّ مِنْ هَذَا الوَجْهِ.

فَيَرَاهُمَا جَمِيعاً، قَالَ قَتَادَةُ: وَذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ: وَأَمَّا المُنَافِقُ وَالكَافِرُ فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ ؟ فَيَقُولُ: لا أَدْرِي، كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لا دَرَيْتَ وَلا تَلَيْتَ، وَيُضْرَبُ بِمَطَارِقَ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ) (١).

وفي رواية لمسلم زيادة: (.. قَالَ فَيُقَالُ لَهُ انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنْ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَداً مِنْ الجَنَّةِ قَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ فَيَرَاهُمَا جَمِيعاً، قَالَ قَتَادَةُ: وَذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعاً، وَيُمْلأُ عَلَيْهِ خَضِراً إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) (٢).

وجاء في رواية الإمام أحمد في المسند برقم /١١٨٢٣/: ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَاقٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ فَيَصِيحُ صَيْحَةً فَيَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرُ الثَّقَلَيْنِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ يَضِيقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلاعُهُ).

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: إِنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ دَخَلَ نَخْلاً لِبَنِي النَّجَّارِ، فَسَمِعَ صَوْتاً فَفَزِعَ فَقَالَ: مَنْ أَصْحَابُ هَذِهِ الْقُبُورِ ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ نَاسٌ مَاتُوا فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ: تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ

(١) . رواه البخاريّ في كتاب الجنائز برقم /١٢٨٥/.

(٢) . في كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها برقم /٥١١٥/.

النَّارِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ، قَالُوا: وَمِمَّ ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ: إِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ أَتَاهُ مَلَكٌ، فَيَقُولُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَعْبُدُ ؟ فَإِنْ اللهُ هَدَاهُ قَالَ: كُنْتُ أَعْبُدُ اللهَ، فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ ؟ فَيَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، فَمَا يُسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ غَيْرِهَا، فَيُنْطَلَقُ بِهِ إِلَى بَيْتٍ كَانَ لَهُ فِي النَّارِ، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا بَيْتُكَ كَانَ لَكَ فِي النَّارِ، وَلَكِنَّ اللهَ عَصَمَكَ وَرَحِمَكَ، فَأَبْدَلَكَ بِهِ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ، فَيَقُولُ: دَعُونِي حَتَّى أَذْهَبَ فَأُبَشِّرَ أَهْلِي، فَيُقَالُ لَهُ: اسْكُنْ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ أَتَاهُ مَلَكٌ، فَيَنْتَهِرُهُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَعْبُدُ ؟ فَيَقُولُ: لا أَدْرِي، فَيُقَالُ لَهُ: لا دَرَيْتَ وَلا تَلَيْتَ، فَيُقَالُ لَهُ: فَمَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيَضْرِبُهُ بِمِطْرَاقٍ مِنْ حَدِيدٍ بَيْنَ أُذُنَيْهِ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا الخَلْقُ غَيْرُ الثَّقَلَيْنِ) [١].

فخطّط لنفسك كيف تموت. ! ولعلّك تقول لي: وهل يملك الإنسان أن يخطّط لنفس كيف تموت.؟ فأقول لك: نعم، يملك ذلك بالنيّة الصادقة، والعزيمة المخلصة، والتذلّل لله تعالى والضراعة، مع العمل الذي يصدّق ذلك كلّه، ألم يقل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

(١) . رواه أبو داود في كتاب السنة برقم /٤١٢٦/ زَادَ فِي رواية: وَأَمَّا الكَافِرُ وَالمُنَافِقُ.

ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ آل عمران.

ثمّ ألم تسمع بقول النبيّ ﷺ للأعرابيّ الذي قال له عندما أعطاه حظّه من المغنم، فقال له: **مَا عَلَى هَذَا اتَّبَعْتُكَ، وَلَكِنِّي اتَّبَعْتُكَ عَلَى أَنْ أُرْمَى إِلَى هَاهُنَا - وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ - بِسَهْمٍ، فَأَمُوتَ فَأَدْخُلَ الجَنَّةَ، فَقَالَ: إِنْ تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ، فَلَبِثُوا قَلِيلاً، ثُمَّ نَهَضُوا فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ، فَأُتِيَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ يُحْمَلُ، قَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ حَيْثُ أَشَارَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَهُوَ هُوَ ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: صَدَقَ اللهَ فَصَدَقَهُ، ثُمَّ كَفَّنَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي جُبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَدَّمَهُ فَصَلَّى عَلَيْهِ، فَكَانَ فِيمَا ظَهَرَ مِنْ صَلاتِهِ:**

(اللَّهُمَّ هَذَا عَبْدُكَ، خَرَجَ مُهَاجِراً فِي سَبِيلِكَ، فَقُتِلَ شَهِيداً، أَنَا شَهِيدٌ عَلَى ذَلِكَ) (١).

فطوبى له وهنيئاً بهذه الشهادة النبويّة الكريمة على الله.!

ثمّ ألم يقل النبيّ ﷺ: **(مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ)** (٢).

فإن لم تعتبر بكلّ هذا فما تنفع معك المواعظ والعبر، حتّى تكونَ عبرة لمن اعتبر..

---

(١). رواه النسائيّ في كتاب الجنائز برقم /١٩٢٧/.

(٢). رواه مسلم في كتاب الإمارة عن سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ ﷺ برقم /٣٥٣٢/ والترمذيّ وأبو داود وابن ماجة.

فعجّل أُخَيّ بالتوبة ولا تسوّف.. وبادر إلى الطاعة ولا تتلكّأ.. وسارع إلى مغفرة من ربّك وجنّة عرضها السموات والأرض، أعدّت للمتّقين.. وابذل من مالك ما يكون ستراً لك من النار، وقدّم من العمل الصالح ما يكون شفيعك، ويثقّل موازينك: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ الأعراف.

وختام الختام

اللهُمّ ارحمنا إذا عَرِقَ الجَبِين، وكَثُرَ الأنِين، ويَئِسَ منّا الطبيبُ، وبكَى عَلينا الحَبيب.

اللهُمّ ارحمنا إذا وارانا الترابُ، ووَدّعَنا الأحبابُ، وفَارقَنا النعِيمُ، وانقَطعَ النسِيم.

اللهُمّ ارحمنا إذا بَلِي جِسمُنا، ونُسِي اسمُنا، وانمحَى ذِكرُنا، واندرَسَ قبرُنا..

اللهُمّ ارحمنا يومَ تُبلَى السرائِرُ، وتُبدَى الضمائِرُ وتُنشَرُ الدواوين، وتُنصَبُ الموازين.

اللهُمّ برحمتِك نَستَعِينُ يا أرحَمَ الراحمن.

اللهُمّ رحمتَك نَرجُو، فلا تكِلنا إلى أنفسِنا، ولا إلى أحدٍ مِن خلقِك، طرفةَ عَينٍ ولا أقلَّ مِن ذلِكَ، وأصلِح لنا شَأنَنا كلَّه بفضلِكَ، لا إلهَ إلاّ أنتَ، وأصلِحنا ظاهِراً وباطِناً يا مُصلِحَ الصالحين.

وأختم الحديث بما بدأت: " **اللهمّ اجعل الموت خيرَ غائب ننتظره، واجعل القبرَ خير بيتٍ نعمرُه، واجعل ما بعده خيراً لنا منه، برحمتك يا أرحم الراحمين** ".

" اللهُـمَّ اجعَل خَـيرَ عُمُـري آخِـرَه، وخَـيرَ عَمَلِي خَواتمَـه، وخَـيرَ أيّامِي يَومَ ألقَاكَ وأنتَ رَاضٍ عَنّي ".

وصلّى الله وسلّم وبارك على عبده ونبيّه سيّدنا محمّد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين.

المحتويات

الموضوع **الصفحة**

الإهداء

تصدير

مُقدّمة

واحزناه عليك أيها الإنسان . !

التصوّر القرآنيّ عن الموت والحياة

* من مواعظ الصحف الأولى:

* من مواعظ السلف بالموت

* كيف يستقبل الصالحون الموت . ؟

* اللهم أكرمنا بحسن الخاتمة

* وقائع وأخبار، فهل من مدّكِر . ؟

١ * مخطوبة والموت يخطبها !

٢ * في طريقه إلى الجامعة . .

٣ * ودّع زوجته ولم يعد إليها إلاّ محمولاً . .

٤ * مات وهو مسترخ على مكتبه . .

٥ * كان يلعب بين أترابه . .

٦ * أمام خزانة أمواله..

٧ * نام ولم يستيقظ..

٨ * مزرعة لا مثيل لها في سوريّة كلّها..!

٩ * المتنافسات في الطعام..

١٠ * كان يسمع الهجاء من خصمه..!

١١ * اجتمعوا على الفساد والخمر والنساء..

١٢ * " ما بدّي أموت! ما بدّي أموت! "

١٣ * لاهث بسيّارته.. يمشي بها مرحاً..

١٤ * راقصون لاهون.. والموت يرقبهم..

١٥ * المغنون الماجنون.. ثمّ جاءتهم شجرة الموت تسعى..

١٦ * والله لا أزال أغنّي حتّى ينقطع هذا النفس.!

١٧ * الهاتف الجوّال على أذنه..

١٨ * كان عوناً للظالم، وسيفاً على المظلوم..

١٩ * باعت شرفها بكلمات أو دريهمات..

٢٠ * ملأ الأرض إثماً وظلماً، وبغياً وفساداً..

٢١ * بينما كان يمكر بأهل الحقّ، ويخطّط ويدبّر..

٢٢ * مات والمصحف بين يديه..

٢٣ * هكذا مات جدّي.!

٢٤ * كيف فارق شيخنا الحياة.؟

٢٥ * مات ساجداً يدعو ربّه..

٢٦ * بعد أيام من توبته..

٢٧ * مات محرماً ملبّياً..

٢٨ * في طريقه إلى الحرم..

٢٩ * في طريقه إلى المنبر..

٣٠ * كان يسعى في الصلح بين زوجين. .

٣١ * بعدما تابت واستجابت. !

٣٢ * بين محاضرتين. .

٣٣ * مات في الصلاة وفي الطريق إلى بيت الله. . !

٣٤ * في لحْظةٍ واحدة يُطوى كلّ شيء:

٣٥ * فضيحة غير محسوبة:

٣٦ * خاطب بعد حين:

٣٧ * هربت من النار فقتلها الدخان:

٣٨ * من الإكرام إلى دار الكرامة:

٣٩ * لمسة كهرباء:

٤٠ * غدرة بغدرة:

٤١ * الموت أقوى من الفرح:

٤٢ * مستدرج إلى حتفه:

٤٣ * شرب كأس الحمام قبل أن يشرب كأسه:

٤٤ * شبح الموت:

٤٥ * راكض إلى الله!

٤٦ * لم ينس ذكر الموت:

٤٧ * مات الزائر وشفي المزور:

٤٨ * ودّع أصحابه قبل أن يودّع الحياة:

٤٩ * عبث أم خطفة النومِ أم الموت:

٥٠ * باحث عن الحور العين:

* فصل في التعزية

الخاتمة:

هل فكّرت في نفسك كيف ستكون ميتتك ؟! وهل خطّطت لها ؟

* فكّر يا أخي! علام تَقدُم بعد الموت. ؟

خطّط لنفسك كيف تموت. !

وختام الختام:

المحتويات

* صدر للمؤلّف *

١ ـ ضرب الأمثال في القرآن أهدافه التربويّة وآثاره.

٢ ـ وجوب وحدة المسلمين.

٣ ـ رسالة المعلّم وآداب العالم والمتعلّم.

٤ ـ اعرف نبيّك محمّداً ﷺ يا بنيّ. !

٥ ـ ومضات من هدي النبيّ الخاتم ﷺ.

٦ ـ البيّنات في تفسير سورة الحجرات.

٧ ـ المنهج القويم للداعية الحكيم.

٨ ـ مشاهد الأتقياء في الصبر على الابتلاء.

٩ ـ رسالتان في التربية.

١٠ ـ صور وعبر من لطائف القدر. المجموعة الأولى.

١١ ـ صور وعبر من عجائب القدر. المجموعة الثانية.

١٢ ـ حديث القلب.

١٣ ـ النصائح الذهبيّة لتربية الأولاد ورعايتهم.

١٤ ـ قبسات من نور النبوّة لصاحبي الفضيلة: الشيخ أحمد عزّ الدين البيانوني، والشيخ عبد الفتّاح أبو غدّة رحمهما الله تعالى. بعناية د. عبد المجيد البيانوني، وفي ختامه رسالة: " ومضات من هدي النبيّ الخاتم ﷺ ".

١٥ ـ تذكرة العابد بحقوق المساجد.

١٦ ـ أساليب تربويّة ومفاهيم دعويّة من حياة الشيخ أحمد عزّ الدين البيانوني.

١٧. ركائز دعويّة من هدي النبيّ ﷺ في العلاقات الاجتماعيّة.

١٨ ـ القول المبين في تفسير سورة: " يس ".

١٩ ـ لمحات من حياة الشيخ أحمد عزّ الدين البيانوني وتعريف بمؤلّفاته.

٢٠ ـ مواقف تربويّة من هدي النبيّ ﷺ مع الأطفال.

٢١ ـ خمس عشرة مهارة تجعلك مربّياً متميّزاً.

٢٢ ـ خطوة خطوة نحو التربية الناجحة.

٢٣ ـ أربع رسائل في التربية.

٢٤ ـ لئلاّ تضيع الطفولة: ثلاثون سبباً تمنعك من الطلاق. !

٢٥. الغائب المنتظر

٢٦ ـ ملامح السعادة في تربية الطفل على العبادة

٢٧ ـ معالم تربويّة

٢٨ ـ حديث أبي دردرة!

٢٩ ـ أيها الأمير رسَالتَان فِي النُصح وَالرِّعَايَة

٣٠ ـ إنّها الأنثَى. ! رؤى نقديّة حول دعوى التمييز ضدّ المرأة

٣١ ـ كيف تنعم أسرنا بالأمن. ؟